تأملات بعد الفجر

الشيخ عبد الحميد البلالي

الطبعة الجديدة



مكتبة المنار الإسلامية

دار ابن حزم

تأملات
بعد الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات بعد الفجر

الشيخ عبد الحميد البلالي

الطبعة الجديدة



مكتبة المنار الإسلامية   دار ابن حزم

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

الكويت - حولي - شارع المثنى - ص.ب: ٩٩-٤٣ حولي - الرمز البريدي: 32045
تليفون: ٢٦١٥٠٤٥ - ٢٦٥٤٦٣٩ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

فترة **الفجر** والفترة التي تعقبه، من أجمل فترات اليوم، بما تحمل من سكون الخلائق والضجيج، وسكون النفس وهدوءها، وفيها تصفو النفس، وتشف عما يختلج فيها من أحاسيس وخواطر، وهي الفترة التي توزع فيها الأرزاق، والخواطر والفتوحات نوع من أنواع الرزق يوزعه الله في تلك الفترة من اليوم.

فمعظم هذه **الخواطر والتاملات** كتبتها بعد **الفجر** مباشرة على مدى سنتين، وهي الفترة التي قضيتها في أمريكا للدراسة من الشهر الثامن لعام **١٩٨٩** وحتى الشهر الثامن لعام **١٩٩١** وهو الشهر الذي حدثت فيه نكبة الكويت وما تلتها من أحداث. هذه **الخواطر** لم أكتبها جلسة واحدة، بل كتبتها متفرقة على طول تلك الفترة التي قضيتها في أمريكا، وبعضاً من الوقت قضيته في الكويت قبل الذهاب للدراسة، وبعضاً آخر من الوقت قضيته بعد التخرج في أرض المهجر في الإمارات العربية المتحدة.

هذه **الخواطر،** لم تأتِ مرتبة، بل جاءت عفوية، وفي مجالات عدة، في الدعوة، وفي النفس، وفي الأخلاق، وفي الأدب، وفي التاريخ، وفي السياسة، وفي الرقائق، والحوادث، وغيرها من الأمور، والعزيمة معقودة بإذن الله، على أن تتواصل هذه الخواطر، بأجزاء متلاحقة ما دام في العمر فسحة، والله أسأل أن يقبل هذا العمل وأن يبارك فيه، ويجعله نافعاً للمؤمنين.

أبو خلاد

التجديد

تعوّد الإنسان على حب التجديد دائماً، والملل مما هو بين يديه، فتراه يغير دابته بعدما ملّ طول البقاء معها، وتراه يغيّر ثوبه، ويغير منزله، يجدد الأثاث فيه، أو يعيد ترتيبه وقد يبيعه بالكلية ويشتري آخر، ويجدد المكان الذي هو فيه، فترى الحاجة إلى السفر أو النزهة. وهكذا هو حال معظم الناس، ولا غرابة في ذلك، ولكن الغريب في الأمر أن التجديد يمس كل شيء في حياته الدنيوية ويتغاضى عن التجديد لأمر الآخرة. فنجد معظمهم يبقى على ما هو عليه من حال ضعف وقسوة قلب، وبلادة حس، وفتور همة، وانهماك في معاصٍ كثيرة. ولا يمل من طول الفترة على تلك الحال من دون تجديد. وهكذا يكون أمر الفلاح والخيبة في الدنيا والآخرة. وذلك لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[١].

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

فربط أمر الفلاح بمن يقوم بأمر التجديد لهذه النفس والارتقاء بها دوماً، ورفض البقاء على حالٍ واحدة، وجعل الخيبة والخسارة لمن ترك نفسه توغل بالمعاصي دون أن ينتشلها من ذلك العفن.

أوقات ضائعة

تستيقظ أحياناً قبل طلوع الفجر، بمدة، إذ يمتنع عنك النوم بعد المحاولات الكثيرة، وهذه الساعة هي من أغلى الساعات وأثمنها في حياة المسلم، إذ أن الرب سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الأولى وينادي: «**هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له**... الحديث»[1].

وهنا يشتد الشيطان على ابن آدم ويقول له: «حاول أن تنام انقلب على اليمين ثم انقلب على اليسار» وإذا لم يأته النوم قال له: «حاول أن تنام على قفاك» وإذا امتنع عنه النوم في جميع هذه الحالات، وجاء له خاطر القيام عارضه وقال: اذهب واقرأ بعض الصحف، أو يقول: «اذهب وتمشَّ على ساحل البحر حتى يأتيك النوم» وهكذا يحاول دائماً أن يصرفه عن تلك العبادة الثمينة ليضيع وقته فيما لا ينفع، وتضيع تلك الدقائق الغالية والتي لا تشعر بضياعها إلا عند فراش الموت أو عندما تقوم القيامة..

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (ص ج ص ٨١٦٧).

نعمة العقل

عندما أصيب والدي رحمه الله بالجلطة في المخ رأيت كيف يتحول الضيغم الذي لا يقف أمامه أحد عندما يغضب رأيته كيف يتحول إلى كتلة لحمية لا يستطيع الكلام ولا التحكم بما يدخل فيه ويخرج منه. رأيت كيف يتحول ذلك الإنسان المتزن بكل خطواته وتصرفاته إلى مرحلة الطفولة المبكرة فيتصرف كما يتصرفون، ورأيت كيف يفقد التوازن فيقع من أم رأسه على وجهه، ورأيت كيف كان يرى الأشياء ويريد أن يعبر عما يريد فلا يملك إلا الصياح بصيحات ليس لها أي معنىً سوى ذبذبات صوتية متلاشية، رأيت كيف يمر عليه عشرات الأصدقاء والأحباء يحيونه فلا يعرف أحداً منهم، يجلسون عنده ويخرجون وما كأنهم دخلوا أو خرجوا، رأيت كيف يتحول الإنسان الذي يضحك ويبكي ويعقد الصفقات ويشعر ويتفاعل، ويأمر وينهى، ويخطط ويدير، ويغدو ويروح، ويحب ويبغض، ويوالي أو يتبرأ، يتحول إلى مجموعة من الجوارح اللحمية ليس لها أي وظيفة عدا ما يمر بها من دماء وروح إلى لحظة قد حددها مالك الملك لكي تتوقف تماماً دون حراك، ذلك لأنها لا تتلقى شيئاً من الأوامر من العقل الذي كان يدير حركتها ويوجهها. أيقنت بعد كل ما رأيت أن أجلّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان هو نعمة العقل فهو المحرك لكل عضو في جسد الإنسان، كما أنه هو المقرر للإرادة والاختيار اللتين خلقهما الله ومنحهما لذلك الإنسان فميَّزه بذلك عن الملائكة والبهائم.

هذه النعمة العظيمة قد يسلبها الرب سبحانه وتعالى في أي

لحظة من لحظات عمر الإنسان، وهو يأكل الطعام، وهو في أشد حالات مرحه أو غضبه، وهو نائم أو يقظ. وعندها يتوقف عمل الإنسان، كأن قيامته قد قامت وهو بعد يدب على الأرض لأنه أقرب إلى أهل القبور منه إلى الأحياء. فالعاقل من ينتبه إلى ذلك، ويكون على استعداد دائم قبل أن تتوقف عقارب الأعمال ولات حين مندم..

تحديد الداء

عندما يذهب المرء إلى الطبيب الحاذق، ويجري ذلك الطبيب فحوصاته بدقة وتأنٍ، ويقوم بعمل الأشعة اللازمة لمكان الألم المشتكى منه، ثم يقرن ذلك كله بنتائج التحاليل المخبرية وما لديه من علم وخبرة يحدد من خلالها الداء بدقة. ثم يصف الدواء، وإذا به يكون هو السبب البشري الذي يوافق ما قدّر الله من أمر الشفاء فيبرىء المريض مما يشتكي، وقد يذهب ذلك المرء إلى طبيب عاجز جاهل، ليس له ذلك العلم والمتابعة لما يجري كل يوم من تقدم في هذا المجال، أو أصابه النسيان لما تعلم من علم لابتعاده عن ممارسة ما تعلم أو متابعته بالمراجعة الدائمة، فإن هذا الطبيب لا يحسن تحديد الداء ومن ثم فإنه يصف دواءاً خاطئاً قد يسبب مضاعفات لذلك المريض أو قد يقتله، أو قد يحدث فيه أمراضاً أخرى لم تكن فيه. وهذا ما يحدث تماماً للمسلم عندما يشعر بالقلق، والضيق، وقسوة القلب، وفقدان الخشوع ولذة الإيمان، وفقدان التدبر، وزوال التفاعل مع كلمات الوحي أو كلمات سيد البشر صلوات الله

لحظة من لحظات عمر الإنسان، وهو يأكل الطعام، وهو في أشد حالات مرحه أو غضبه، وهو نائم أو يقظ. وعندها يتوقف عمل الإنسان، كأن قيامته قد قامت وهو بعد يدب على الأرض لأنه أقرب إلى أهل القبور منه إلى الأحياء. فالعاقل من ينتبه إلى ذلك، ويكون على استعداد دائم قبل أن تتوقف عقارب الأعمال ولات حين مندمٍ..

تحديد الداء

عندما يذهب المرء إلى الطبيب الحاذق، ويجري ذلك الطبيب فحوصاته بدقة وتأنٍ، ويقوم بعمل الأشعة اللازمة لمكان الألم المشتكى منه، ثم يقرن ذلك كله بنتائج التحاليل المخبرية وما لديه من علم وخبرة يحدد من خلالها الداء بدقة. ثم يصف الدواء، وإذا به يكون هو السبب البشري الذي يوافق ما قدّر الله من أمر الشفاء فيبرىء المريض مما يشتكي، وقد يذهب ذلك المرء إلى طبيب عاجز جاهل، ليس له ذلك العلم والمتابعة لما يجري كل يوم من تقدم في هذا المجال، أو أصابه النسيان لما تعلم من علم لابتعاده عن ممارسة ما تعلم أو متابعته بالمراجعة الدائمة، فإن هذا الطبيب لا يحسن تحديد الداء ومن ثم فإنه يصف دواءاً خاطئاً قد يسبب مضاعفات لذلك المريض أو قد يقتله، أو قد يحدث فيه أمراضاً أخرى لم تكن فيه. وهذا ما يحدث تماماً للمسلم عندما يشعر بالقلق، والضيق، وقسوة القلب، وفقدان الخشوع ولذة الإيمان، وفقدان التدبر، وزوال التفاعل مع كلمات الوحي أو كلمات سيد البشر صلوات الله

وسلامه عليه، فإنه إن لم يحدد الداء الذي سبّب له كل ذلك بالذهاب إلى العلماء العاملين المخلصين، واعتمد على ما لديه من علم قاصر قديم، أو ذهب إلى من لا يملك إلا صورة العلماء، فإنه يبقى في دوّامة التيه، وصحراء الغفلة، ويزداد ضيقه وقسوة قلبه يوماً بعد يوم، لأنه لم يحسن تحديد الداء فأخطأ في وصف الدواء.

ثمار الخير

عندما نغرس الخير في أماكن متعددة، ونرى الثمار في مكانٍ ما، يغرينا ذلك بالتركيز على ذلك المكان بكل ما نملك من جهد ومال وتخطيط وتدبير، ونقلل من الاهتمام أو ننسى أحياناً تلك الأماكن التي لم نرَ فيها ثمار غرسنا. أو رأينا ثماراً قليلة، أو ذات نوعية ضعيفة، وهذا من مداخل الشيطان التي يدخل فيها على الكثير من عمّال الخير، أصحاب الهمم العالية في مجالات الخير، لأنه قد تكون تلك الأماكن المهجورة أو التي لم تتركز عليها الجهود أشد عليه عند خروج الثمار من تلك التي يتم التركيز عليها، وحقيقة الأمر أننا كمسلمين لم يطلب منا الثمار، إنما طلب منا العمل، وهذه القاعدة قد أعطاها الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ عندما كان يهتم ويركز على مكان، علم الله أن غيره أولى بالتركيز منه فقال له سبحانه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾[1] أي: يا

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٥ ـ ٧.

محمد إنك لست مسؤولاً ومحاسَباً على عدم هداية هؤلاء الكبار من قريش، وعاتبه في عدم التركيز على تلك الأماكن التي سيكون ثمرها أطيب وأجمل وأشد على الشيطان.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾[1].

العودة إلى الوطن

يحدث كثيراً أن نسافر إلى بلادٍ أخرى، ونسكن في مكان بالإيجار، وقد تلاحظ بعض العيوب في ذلك المسكن وقد لا نجد من يصلح تلك العيوب ولا بديل لذلك السكن. فيقول بعضنا للآخر مهدئاً: «ما هي إلا أيام تنقضي ثم نعود إلى الوطن» داعياً لنا بذلك إلى التحمل لما نجد من نواقص ليست في مساكننا التي في أوطاننا. أوَليس هذا ما يجب علينا أن نتذكره ونحن نعيش على هذه الأرض؟! أوَما يدعونا ذلك لأن نتحمل ما نصاب به من المصائب والنكبات بأن نتذكر أن هذا المقام هو مقام مؤقت، وأننا راجعون جميعاً إلى الله حيث هناك المسكن الحقيقي الدائم، والوطن الذي ليست فيه نقيصة لمن أحسن العمل في الدار المؤقتة «الدنيا»؟..

الخوف من الموت

تفكرت في نفسي، وتساءلت عن سبب خوف الكثير من ذكر الموت، فتبادر إلى ذهني أن ذلك قد يكون لأسباب كثيرة منها:

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٨ ـ ١٠.

١ ـ الاغترار بما يجدون من الصحة والمعافاة من الأمراض الخطيرة، فيرفضون ما يذكرهم بنهايتهم وضعفهم.

٢ ـ عدم الذهاب إلى المقابر، أو الأماكن التي تذكر بالموت كالمستشفيات ودور العَجَزة.

٣ ـ لأنهم يخافون من أهوال الموت.

٤ ـ لأن ذكر الموت ينغص عليهم ما هم فيه من اللذائذ وهم يريدون أن تكون لذّاتهم دائمة.

٥ ـ الانشغال الكثير بأمور الدنيا من المسكن والملبس والمنكح والمركب وهذه الأمور تلصق الإنسان بالطين وتبعد نفسه عن التحليق في أمور الآخرة.

٦ ـ نسيان أن الموت قد يقع لهم في أي لحظة دون سابق إنذار.

٧ ـ البيئة التي نشؤوا فيها، إذ أن للبيئة أكبر الأثر في نشأة الإنسان.

٨ ـ قلة رؤية القدوات الذين يكثرون من ذكر الموت..

إشارات خطيرة

عندما أرى بعض الشباب الصالح يزيد من الاهتمام بمظهره الخارجي مثل اهتمامه بنوع القماش، ويحاول دائماً أن يشتري أغلى القماش، ويبدأ يهتم بمعرفة أنواع الأقلام وماركاتها، ويحرص على الماركة المشهورة، وكذلك النعل والسيارة

والمحفظة والعطور وغيرها من الأمور، أبدأ أخاف وأضع يدي على قلبي خشية عليه من السقوط لأن هذه هي بعض إشارات السقوط وصدق الرسول ﷺ عندما قال: **«البذاذة من الإيمان»**[1]..

أحوال المؤمن

عجيباً أمر المؤمن، إذا زاد من العمل وأعجب بما قدم ألزم نفسه وذكرها بعدم القبول، لأن أحد شرطي قبول العمل أن يكون العمل خالصاً لوجهه الكريم، وإذا كسل عن العمل وأصابه الفتور تذكر الموت وانقطاع الأعمال، وفوات الوقت فسارع لاستدراك ما فات، وإذا رأى في نفسه نشاطاً وهمة تذكر ما قام به العباد من الأعمال التي هي أضعاف أضعاف ما قام به، وهكذا هو في حرب مع نفسه التي تأمره بالسوء وهو يحاول إصلاحها وتزكيتها حتى يبقى على الصراط الذي أمره الله أن يبقى عليه.

الشيطان والإرادة

كنا جالسين أمام الكعبة بعد صلاة المغرب وبينما كنا نتجاذب الحديث في ساعة من الساعات الإيمانية، وإذا بصاحبي يسأل: «ما دخل الشيطان بإرادة الإنسان؟» فقلت: إن الإرادة جهاز أعطاه الله سبحانه وتعالى للإنسان يعينه على اختيار الحق

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح (ص ج ص ٢٨٧٩).

أو الباطل، ودور الشيطان هو تزيين الباطل حتى يختاره الإنسان بإرادته..

التفكير بنعم الله

عندما أجلس بعد الصلوات وأبدأ بالتسبيح ثم الحمد والتفكير، فإنني لا أشعر بلذة ذلك الذكر حتى أتفكر وأنطلق خارج إطار المسجد أو المكان الذي أذكر فيه، ومثالاً على ذلك عندما أبدأ بحمد الله، أتفكر بنعمة من النعم بعد كل مرة أقول فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فأجد نفسي صغيراً متضائلاً أمام فيض النعم التي أغدقها الله علي كأن أبدأ بأعلى جسدي وما في جوفي حتى أنتهي بأسفله، ثم أبدأ بالتفكر بالنعم المحيطة بي الأقرب فالأقرب.

فأقول في الأولى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على معافاتي من كل مرض جلدي، وابتلى الآخرين.

وأقول في الثانية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن أعطاني شعراً جمّل وجهي، وحرم الآخرين.

وأقول في الثالثة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن أعطاني البصر أرى به ما حولي من عظمة خلق الله، ومن يتكلمون معي، فأتقي بذلك شر الأعداء، أسير حيث شئت دون قائد دون حول أو عور أو جحوظ.

وأقول في الرابعة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني الشم السليم دون أي مشكلة خلقية تعيق عملية الاستنشاق.

وأقول في الخامسة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني لساناً أتحدث به، وأذكر الله به وأقرأ به، وحرم الآخرين.

وأقول في السادسة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على معافاتي من أمراض الأسنان الخطيرة، وجمّل فمي بهذه الأسنان.

وأقول في السابعة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني السمع السليم دون أي مشكلة من مشاكل السمع.

وأقول في الثامنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جمّل وجهي ولم يجعل فيه عاهة في الأذن أو الأنف أو الفم.

وأقول في التاسعة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني عقلاً سليماً، ولم يجعلني مجنوناً أو ممسوساً.

وأقول في العاشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني قصبة هوائية توصل الهواء للرئة دون أي مشقة.

وأقول في الحادية عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني المريء يوصل الطعام إلى المعدة.

وأقول في الثانية عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني عنقاً جميلاً خالياً من التشوه.

وأقول في الثالثة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن رزقني قلباً خالياً من الأمراض.

وأقول في الرابعة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن عافاني من ضغط الدم والسكر وما شابههما من أمراض.

وأقول في الخامسة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافى عظام صدري من الكسور أو التشوه الخلقي.

وأقول في السادسة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافى كبدي من التليف أو باقي أمراض الكبد.

وأقول في السابعة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافى رئتي من سرطان الرئة والتنك وغيرها من الأمراض.

وأقول في الثامنة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافى معدتي من القرحة، وسوء الهضم.

وأقول في التاسعة عشرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافى أمعائي من الانسداد أو الانفجار.

وأقول في العشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي جعل كليتي تعمل بانتظام ولم يصبني بفشل كلوي.

وأقول في الحادية والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لم يصبني بأي من الأمراض التناسلية.

وأقول في الثانية والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني الأبناء وابتلى الكثير بالحرمان.

وأقول في الثالثة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي عافاني من التكسح في قدمي أو أي جزء من جسدي.

وأقول في الرابعة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني الهداية وهي أجلّ النعم بعد نعمة العقل.

وأقول في الخامسة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني مالاً أتعفف به عن السؤال.

وأقول في السادسة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني بيتاً ولم يجعلني من غير مأوى.

وأقول في السابعة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني طعاماً يبعد عني الجوع.

وأقول في الثامنة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني القناعة فأبعد عني الطمع والجشع.

وأقول في التاسعة والعشرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي وفقني للرفقة الصالحة.

وأقول في الثلاثين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي جعلني من المتعلمين ولم يجعلني من الجاهلين.

وأقول في الواحدة والثلاثين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أنعم عليّ برضى الوالدين.

وأقول في الثانية والثلاثين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي رزقني أبناء بررَة.

وأقول في الثالثة والثلاثين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي وفقني لذكر نعم الله وحمده عليها.

هذه بعض نعم الله التي لا تحصى، وقد أنعم على كل عبد بنعم تختلف عن الآخر. وما عليه إلا أن يتذكر هذه النعم

التي أغدقها الله عليه بعد كل حمد، ليشعر بعد ذلك بلذة الذكر، ويستحي من قلة الشكر لهذه النعم.

إمهال الله

تأملت كلمة سعيد بن جبيرٍ رضي الله عنه وهو يساق إلى الموت في آخر حواره مع الحجاج، عندما ضحك، فأمر الحجاج بالإتيان به ليسأله عن سبب ضحكه فقال: «تعجبت من تطاولك على الله وصبر الله عليك». فإمهال الله ليس كإمهال البشر فالله سبحانه وتعالى يترك الإنسان يعصي ويعصي ويعطيه الفرصة تلو الفرصة، والإنذار تلو الإنذار عن طريق إنجائه من موت محقق، أو إنقاذه من حادثٍ خطير، أو خسارة في تجارة، أو نكبةٍ كبيرة، أو مرضٍ خطير، كل ذلك إشارات وإنذارات تدله على خطأ ما يفعل، فإن استفاد من تلك الإشارات ورجع إلى الجادة رفع الله منزلته، ويسّر عليه أمره، وإذا لم يستفد من تلك الإشارات والإنذارات التي قد تستمر الزمن الطويل، حتى يظن ذلك الإنسان أن الله قد غفل عنه، أو أنه لا يعمل عملاً يستحق العقوبة، مثل أولئك الذين ذكرهم الله في سورة المجادلة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[1] إذا لم يستفد

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٨.

من تلك الإنذارات وقال في نفسه ما قال، واستبعد العقاب، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر أو أنه يرجىء له العذاب إلى الآخرة، ليعذبه عذاباً لا يخطر على بال بشر.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1].



الخوف على الرزق

إن أول شيء كتب على ابن آدم وهو جنين في بطن أمه الرزق كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد...**»[2]. ومع ذلك فإن أكثر ما يقلق الإنسان في حياته هو قضية الرزق والسعي بكل ما أوتي من قوة ودهاء لتحصيل هذا الرزق. فتراه يخاف من البشر إذا هددوه بقطع الرزق، ويخاف من الخسارة في التجارة حتى لا ينقطع عنه الرزق. وهو في خضم قلقه وسعيه ينسى أن الذي كتب رزقه هو الله سبحانه وتعالى، وهو الضامن لرزقه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يمنعوه شيئاً كتبه الله له لا يستطيعون، لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٨.

(٢) البخاري ١١/٤١٧ وله تكملة.

﴿مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[1]..

المحفظة الضائعة

في رحلة إلى العمرة مع بعض الإخوة، فقَدَ أحدهم محفظته والتي كانت تحوي على المال وجميع أوراقه الثبوتية، وكَرْت الفيزا، وكَرْت السحب الآلي وأوراق أخرى مهمة فسأل عنها أخاً أو أخوين، وسأل رجال الجمارك في المطار. ولم يعرف عنها أحد شيئاً فحمد الله وعاد إلى الحديث إلى إخوانه فيما كانوا يتحدثون فيه. ونسيها تماماً، وهو يضحك ويبتسم، ويمازح هذا وذاك، فتعجب منه أحد الإخوة لهذا التصرف، فلم يتحمل حتى سأله: «لماذا لم تتأثر بفقدان محفظتك، فلو كنت مكانك لما هدأت؟» فردّ عليه صاحب المحفظة: هذا قدر الله، وقدّر الله وما شاء فعل، فماذا عساه ينفعني الجزع والغضب؟ نحن نريد أصنافاً من الناس يحتسبون كل شيء في سبيل الله، ولا يحزنون على شيء من الدنيا يضيع منهم، بل نريد أولئك الرجال الذين يستولي عليهم الحزن إذا فاتهم شيء من الآخرة. كفوات الصلوات وقيام الليل، وصيام التطوع، وجولات الخير هنا وهناك..

بيت لا سقف له

دخل التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا فرجا أن يكونوا على ذكر الله تعالى،

(١) سورة فاطر، الآية: ٢.

فجلس إليهم وإذا بعضهم يقول: قدم غلامي فأصاب كذا وكذا. وقال آخر: جهزت غلامي. فنظر إليهم وقال: سبحان الله أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب هذا المطر فدخل فإذا البيت لا سقف له. جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكرَ وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا»[1].

أصبحت الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج وغيرها من سائر العبادات عند كثير من الناس حركات روتينية تعودوا على فعلها دون استشعار معناها، فما أكثر المصلين. ولكن صلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي. والسبب في ذلك غلبة الانشغال في الدنيا، وسيطرة همها عليهم، فيسلبون الخشوع المؤدي للتغيير، ولأنه لا يوجد في جوفهم غير الدنيا فإنهم إن تحدثوا فإنما يتحدثون عنها حتى وإن كانوا في بيوت الله أو في المقابر أو المستشفيات أو سائر الأماكن التي تذكر بالآخرة، وإنما حديث الناس هو انعكاس عما يستولي عليهم من الهم، فإن كان هم الدنيا تحدثوا عن الدنيا، وإن كان هم الآخرة تحدثوا عن الآخرة. والجلوس مع أمثال هؤلاء الدنيويين يضعف القلب ويتعبه. ولذلك جاء في ترجمة أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه «أنه لم يكن يجالس أحداً يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحول عنه»[2]..

(١) صفة الصفوة ٢٠٩/٤.

(٢) صفة الصفوة ٢٠٩/٤.

خنق الفخ

يقول الإمام ابن القيم: «من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة»[1]. ويمثل الإمام ابن القيم الإنسان وكأنه طائر جائع يرى فخاً فيه طعامه الذي ينقذه من ذلك الجوع فيقع في حيرة من أمره، بين جذبين، وبين خوفين، جذب الطعام وبريقه، وجذب السلامة والحياة. وبين الخوف من الجوع المؤدي للهلاك وبين الخوف من الفخ المؤدي للهلاك أيضاً. فإما أن يتغلب عليه جوعه وجذب الطعام الذي يبحث عنه فينسى النتائج، فيقع في قبضة الفخ، فيكون أسيراً في يد الصائد يتحكم فيه كيف يشاء، ويكون حبيس القفص لا يخرج منه حتى يموت، أو يذبحه للانتفاع بلحمه. وإما أن يتذكر العاقبة، وكيف سينطبق عليه فكا الفخ وكيف سيعيش في الأسر، فيبتعد مؤثراً السلامة، وصابراً على جوعه، وهو حي على أن يكون شبعان وهو أسير.

وكذلك من تذكر عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، وأهوال القيامة، والفضيحة في الآخرة، وكثرة الحسرات والندم، وتذكر سؤال الله يوم القيامة لما أقدم على الزينة التي أخفت تحتها ما يغضب الله، وما يبعد عن طريقه، ولآثر الجوع ونقصاً في الأموال والأنفس والثمرات، على أن يكون ذليلاً مستعبداً بيد الشيطان يتصرف به كيف يشاء، ويكون كالمخمور يتكفأ على وجهه. ويرجع ما في جوفه، ويترنح في مشيته لا يعرف من أمره شيئاً، ذلك أن الدنيا كما يقول يحيى بن معاذ هي «خمر

---

(١) الفوائد ص ٨٩ ـ النفائس.

الشيطان، من سكر منها لا يفيق إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين»[1]. وهكذا قال الزاهد بشر الحافي: «من أحب الدنيا فليتهيأ للذل»[2] فإنه لا يحصل عليها حتى يكون أسيراً في يد الشيطان، سكراناً بخمره..

إقبال النفس

إذا أحب إنسانٌ ما أن يعطيك شيئاً أنت تريده وتبحث عنه، فإن الطبيعة البشرية تقتضي المسارعة بقبول هذا الشيء من المعطي، واستغلال حبه لإعطاء ذلك الشيء قبل أن يغير رأيه، هذا في الأمور الدنيوية التي تحرص النفس على اقتنائها، ولكن الكثيرين منا لا يعاملون أنفسهم تلك المعاملة إذا أقبلت لأمر من أمور الآخرة. والنفس لها إقبال وإدبار فتراها تارة تقبل على فعل أمر من أمور الآخرة كقراءة القرآن أو قيام الليل أو الذكر أو القراءة أو الكتابة أو زيارة الأخيار وما شابهه من أعمال الخير، وتارة أخرى تدبر، ولا بد للعاقل أن يستغل فترة إقبالها خير استغلال، وألا يفوت الفرصة متى ما أقبلت في أي وقت من الأوقات فلا يترك مجالاً لتعويق الشيطان، بأن يقول له إذا ما أقبلت نفسه على فعل أمر من أمور الخير: إن هذا ليس مبرمجاً في عملك اليومي، أو يقول لك: يحسن بك أن ترجىء هذا الأمر إلى الوقت الفلاني.. حتى إذا ما جاء الوقت الفلاني

---

(١) صفة الصفوة ٩٨/٤.

(٢) البداية والنهاية ٢٩٨/١٠.

انشغلت بأمر آخر، أو لا ترى من نفسك ذلك الإقبال فتضعف عن فعل ذلك الأمر، وهذا من الأمور الدقيقة التي تخفى على الكثيرين..

خوف من الشيطان

جاءني بعد صلاة العشاء وعيناه متحفزة للبكاء، يسألني عن مشكلته التي عجز عن حلها لوحده، فأقدم على إخوانه يستشيرهم في حلها. مشكلته تتلخص في أنه إذا أصابه الخير أقبل على الله وإن أصابه الشر ابتعد عن طريق الله، وسبب ابتعاده عندما يصيبه الشر، أنه يقول في نفسه: ما فائدة العبادة وهذا الشر لا يرتفع كلما أقدمت على الله، فيقرر الترك..

قلت له: لا بد أن نفرق أخي الحبيب بين أمرين الأول، الواجبات التي أمر بها الله سبحانه وتعالى لإنقاذ أنفسنا من النار والفوز برضاه وجنته.

والثاني: البلاء الذي نبتلى به في حياتنا.

فالأول لا بد من القيام به في كل ظرف وكل وقت، وذلك لأن المستفيد الأول والأخير من القيام به هو الإنسان نفسه، لأن الله سبحانه وتعالى غير محتاج لنا فهو الغني الحميد، فإن قصرنا في أداء هذه الواجبات فنحن الخاسرون لأن أداءها سبب من أسباب النجاة من النار ولا علاقة لهذا الأمر بالبلاء، ويجب ألا يكون هناك تأثير سلبي على القيام بالواجبات بسبب ما نبتلي به من الشر في حياتنا.

وأما الأمر الثاني فهو البلاء فلا بد أن تعرف أن البلاء أو الفتنة أو الاختبار الذي يقدره الله على عباده لا ينحصر في الشر فقط بل بالخير أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بل بالعكس فإن النجاح في هذا الاختبار أسهل من النجاح في اختبار الخير، وذلك لأن من يفتن بالفقر مثلاً ليس له إلا الصبر، لأنه لا يملك أن يفعل شيئاً، ولكن الثاني وهو من فتن بالمال فإن عنده من المال ما يفعل من المعاصي ويمنح من العطاء، ويلهى عن فعل الواجبات، ويحس أنه غير محتاج لله تعالى. فيكون النجاح فيها صعب لا يوفق فيه إلا من كانت الآخرة هي همه الذي لا يختلط معه هم آخر.

قاطعني في الحديث وقال لي أعرف ذلك كله، ولكن الشيطان قوي قوي يغلبني وأنساق لما يقول لي فماذا أفعل كي أغلبه؟ فقلت له:

أخي الحبيب: تذكر أن هناك من هم أشد منك بلاءاً، فإذا كنت أنت وحدك عازباً قد طردت من العمل وأصبحت بلا نفقة، ولم تجد ما تسد به جوعك، فاعلم أن هناك عوائل من نفس بلدك أباً وزوجةً وعيالاً لا يجدون أي نفقة ولا يسألون الناس إلحافاً يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ومع ذلك عندما يختلطون مع الناس تعجب كيف يضحكون ويمزحون وينشطون في الدعوة، ولا تتغير عبادتهم، بل يزيدون بالتقرب إلى الله، حتى لتعجب أن أمثال هؤلاء لا يجدون نفقة أو ملبساً غير الذي عليهم، ولقد أوصانا رسول الله ﷺ أن نرى من هم دوننا إذا أصابتنا المصيبة، حتى تخف مصيبتنا.

أخي الحبيب: اعلم أن الله سبحانه وتعالى يصيب المرء بالبلاء إذا ما رآه قد اقترف المعاصي، ليلجئه إليه وليزيد من تقربه إليه حتى يغفر الله له تلك الذنوب واعلم أن المرء يبتلى على قدر إيمانه.

ولا تنسَ أن كل ما يصاب به المسلم من هم وغم ومصيبة وحزن ومرض وجرح مأجور عليه، ويكفر ذلك عن سيئاته.

تهلل وجهه ومسح الدموع من عينيه وهو يقول بفرح: أحقاً أن ذلك يكفر عن سيئاته ويؤجر عليه، فقلت: نعم فإن أمر المسلم كله خير فلا يخسر شيئاً، فزاد ذلك من فرحه وقلت له: أختم كلامي بألا تنسَ الدعاء والتذلل له أثناء السجود بأن يرزقك قوة الإيمان والصبر وأن ينصرك على الشيطان، وحقاً أن الشيطان قوي، ولكن الله أقوى، فمن اعتصم به نصره عليه.

عانقني بقوة ووعدني بألا يقطع الصلاة وحضور الجماعة أبداً.

المدخل والمخرج

إذا صببت في إناء فارغ ماءاً فإنك قطعاً ستحصل من الصنبور ماءاً، ولا يعقل أنك سترى لبناً أو عسلاً أو أي سائل آخر غير ما صببت في داخل الإناء، ويمكن أن ينطبق على الإنسان ما ينطبق على الإناء فإنه إذا أدخل في قلبه ما يتصل بالدنيا فإن المخرج سيكون كذلك، أما إذا أدخل في قلبه ما يتصل بالآخرة فإن المخرج سيكون مشابهاً لما أدخل فيه.

ومداخل الإنسان هي جوارحه كاللسان والأذن والعين والقدم واليد، فإذا أدخل عن طريق اللسان قراءة القرآن والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن طريق الأذن الاستماع إلى القرآن ودروس العلم والنصيحة، وعن طريق العين التأمل فيما خلق الله، والنظر في كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ، وغضها عما يغضبه، وعن طريق القدم الذهاب إلى بيوت الله، وإلى حلقات العلم، والمقابر، والمستشفيات والمحتاجين، وصلة الأرحام، وساحات الدعوة إلى الله، وعن طريق اليد، مساعدة المحتاج، وكتابة العلم، والرد على العصاة والطغاة، وما تحتاجه الدعوة إلى الله، وساحات الجهاد في سبيل الله، كل هذه المداخل تصب في قلب الإنسان الذي يخلط كل ما أدخل فيه عن طريق هذه المداخل فيخرجها على شكل سلوك ومشاعر وكلمات معتصرة من كلمات الوحي، ومعاملة، ورحمة، وحلم وهمة وحماسة، ووقار وسكينة، وخشوع وتدبر وقوة وإقدام. تلمس كل ذلك في كلماته وفلتات لسانه، ومشاعره وقراراته وخواطره، واستنتاجاته، واقتراحاته، وتحركاته.

وأما إن أدخل في هذا القلب عن طريق تلك المداخل ما يقرب للدنيا، مع خلطها بما يقرب للآخرة فإن الناتج سيكون مشابهاً تماماً لذلك الخليط، فترى تخليطاً في المعاملة والمشاعر والسلوك، وتناقضاً في المواقف، وتردداً في الإقدام، وتخليطاً في الكلام. ذلك لأن الداخل في هذا الإناء يتناسب مع الخارج منه.

الإنسان الكنود

يقول تعالى في سورة العاديات:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾[١].

يقول الإمام الطبري: «إن الإنسان لكفور لنعم ربه» ويقول الحسن: «يذكر المصائب وينسى النعم»[٢].

ما أسرع جحود الإنسان لنعم ربه الكثيرة فإذا ابتلاه بأمر من الأمور نسي باقي النعم التي هو فيها من أجل ذلك القليل الذي ابتلاه به، وظن أنه أكثر الناس بلاءاً، ويأخذ بالشكوى مما أصابه، وكأنه كما قال الإمام ابن القيم: «يشكو الخالق للمخلوق»، والإنسان غريب بطبعه هذا، فإنه إذا ما أنعم عليه إنسان آخر بأي شيء في الدنيا، فإنه يكون مديناً له بالاحترام والتوقير ومستعداً لمساعدته إذا ما احتاج، ويحتمل تقصيره معه، ويتذكر كلما رآه تلك النعمة التي وهبها له، أما خالق البشر، فإن سلوك معظم الناس يختلف معه، فهو لم ينعم نعمة واحدة، بل نعمه لا تحصى ولا تحصر، ومع ذلك يغلب على الكثيرين من الناس جحود هذه النعم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[٣] بل يزيد فيه الأمر أن ينسب هذه النعم أو بعضها له، بسبب علمه أو خبرته، أو عائلته أو ذكائه، وينسى أن الله سبحانه وتعالى هو

---

(١) سورة العاديات، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) مختصر تفسير الطبري ٢/٥٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

واهب العلم والذكاء والمال وغيره من الأشياء، ولو تذكر هذا الإنسان أنه سيشهد على هذا الجحود يوم لا ينفع مال ولا بنون حق التذكر لما وقع أسيراً لخمر الغفلة.

التسلية عند البلاء

ما من إنسان على هذا الوجود إلا ومعرّض للبلاء، وبشكل خاص المؤمنون، مصداقاً لما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[1].

وغير المؤمنين ينزعجون أشد الانزعاج للبلاء، ويعيشون في قلق واضطراب وتوتر دائم بسبب ذلك البلاء، فيضطرون لالتهام المهدئات بأنواعها، ومراجعة العيادات النفسية، والانغماس في المحرمات من الخمر والنساء ليلهوا أنفسهم عما يصيبهم، لعلهم يهربون قليلاً من واقعهم المر، ولكن المؤمن له ما يسلي نفسه به، حتى يحول البلاء إلى فرح، والسواد إلى بياض، والاضطراب إلى سعادة، وأول ما يسلي المؤمن به نفسه عند البلاء استشعاره أنه عبد لمولاه وأنه ليس للعبد أن يعترض على ما يريد أن يفعله به سيده، وإذا كان هذا ما يريد صانعه به، فلا اعتراض للآلة التي ليس لها حول ولا قوة على من

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.

صنعها. فيقول: «قدّر الله وما شاء فعل».

وثاني الأمور: استشعاره بأن الله سبحانه وتعالى أعلم منه بما يسعده وينفعه، فإذا ما قدر أمراً فلا شك أن ذلك في صالحه، وإن أبدى في ظاهره غير ذلك، فيفوض أمره كله للّه ولا يعترض على ما قدر، فإنه جاهل بالغيب.

وثالث الأمور: استشعاره بأنه مأجور على ما يصاب به من البلاء، وذلك باب من أبواب تكفير السيئات وهو رحمة من الله تعالى ليخفف من ذنوبنا الكثيرة بهذه البلاءات.

ورابع الأمور: تذكره أن هناك من هو أشد منه بلاءاً وأن ما أصابه لا يقارن بما يصاب به الآخرون.

وخامس الأمور: تذكره أن ما أصابه ربما يكون بذنب قد اقترفه فيدعوه ذلك لكثرة الاستغفار والانتباه مما هو فيه من الأعمال لينقيها عما شابها من الأدغال.

وسادس الأمور: تذكره أنه على قدر الإيمان يأتي البلاء فأشد الناس إيماناً أكثرهم بلاءاً، ولعل ما أصابه هو لون من البشارة عما في قلبه من الإيمان.

وسابع الأمور: أن يستيقن أن اعتراضه وقلقه وانزعاجه وشكواه للآخرين لن تغير من أمر المصيبة شيئاً، إذا كان الله سبحانه وتعالى لم يشأ تغييرها وكشفها.

هذه بعض الأمور التي يسلي المؤمن بها نفسه عند البلاء ليحيل الأوجاع إلى عافية، والجزع إلى سعادة وفرح وإقبال.

الاتزان الداخلي والخارجي

يحرص الإنسان أشد الحرص على الاتزان الخارجي، فهو لا يحتمل الحر الشديد فيعادله بمكيف الهواء، وهو لا يحتمل البرد القارس فيعادله بالتدفئة، وهو لا يحتمل الماء الحار فيخلطه بالبارد. ولا يستسيغ طعاماً بلا ملح حتى يعادله بالملح ليكون متزناً، هذه بعض صور الاتزان الخارجي الذي فطر الله الناس عليها، والعجيب أن معظم الناس يفصل بين الاتزان الخارجي وبين الاتزان الداخلي فلا تراه يهتم البتة بالاتزان الداخلي، فترى فيه فوضى داخلية، وتضاد غريب بين الأعمال والأقوال، وبعض الأعمال مع أعمال أخرى، وأقوال وأقوال أخرى، ومن ذلك التعارض وعدم الاتزان حرص البعض على الصلاة في أوقاتها وعدم تورعه عن الغيبة والوقوع في أعراض الناس، ومنها حرص البعض على الدعوة في سبيل الله وعدم الاستيقاظ لصلاة الفجر أو العصر.

ومنها حث البعض على بعض الأعمال وهو لا يقوم بها.

ومنها الاشتغال بوعظ الناس والنصيحة وهو من أبعد الناس عن قبول النصيحة.

ومنها تربية اللحى وتقصير الثياب مع سوء الظن وعدم التثبت والإصرار على الرأي. . .

هذه بعض مظاهر انعدام الاتزان الداخلي الذي يغفل عنه الكثير بين كبير اهتمامهم بالاتزان الخارجي.

تذكر الذنوب

إذا ما نجح المؤمن بالانسلاخ من جميع زينة الدنيا وجواذبها، واستطاع أن يغض طرفه عما حرم الله، فإن فكره يغدو صافياً من كل شوائب الدنيا، والتي تأخذ حيزاً كبيراً في تفكيره، وبالتالي فإنه إذا خلا مع نفسه فإنه لا يفكر إلا في ذنوبه الماضية والحاضرة وأمور الآخرة. والتفكر في الذنوب الماضية من أكبر المحركات للهمم واستدراك ما فات. يتذكر التفاهات التي كان يهتم فيها، ويتذكر الوحل الذي كان يتمرغ فيه، ويتذكر صحبة السوء الذين كان يرافقهم، والأوقات الكثيرة الضائعة التي كان يقضيها فيما يغضب الله، والاهتمامات والهموم من أجل سفاسف الأمور، ثم يتذكر نعمة الله العظيمة عليه إذ انتشله من بين آلاف الشباب ووضع قدمه على الصراط المستقيم، طريق الطهارة من رجس شياطين الإنس والجن، فيستحي من الله لعظيم نعمه عليه وتقصيره في عبادته، وغلبة الكسل عن القيام بما يرضيه، مما يدفعه ذلك لكثرة الاستغفار والاندفاع لفعل الخيرات، ومنافسة من يريدون الدار الآخرة.

هل تتغير طبيعة الإنسان؟

يتردد هذا السؤال كثيراً على ألسنة الكثيرين من الناس. ومعظمهم يعتقد اعتقاداً لا شك فيه، أنه من الصعب وأحياناً من المستحيل أن يتغير طبع الإنسان، وربما جاءت هذه القناعة بسبب ما يرونه من أمثلة بشرية بالماضي والحاضر ما يؤكد هذه المسألة. لذلك أخرجوا الأمثال الكثيرة التي تؤيد ما ذهبوا إليه،

والتي منها «الطبع يغلب التطبع» و«من شبّ على شيء شاب عليه»، ولقد وقفت أمام هذه الأمثلة التي يقتنع الناس فيها، ويعملون بمقتضاها، حتى إذا نصحت أحدهم بالإقلاع عن طبيعة ما، اعتذر عن عدم استطاعته للتغير واستشهد بمثل من تلك الأمثلة، وقلت في نفسي: إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، ولو كان صحيحاً لما وصل إلينا الإسلام. وأخرج قوماً من جاهلية مظلمة إلى أن يكونوا قادة العالم في كل مجال ردحاً من الزمان، إن طبيعة هذا الدين طبيعة تغييرية، وهذا التغير يحدث عندما يعزم المرء على تغيير نفسه، ويبذل السبب في التغيير فيعينه الله، ويقلب طبيعته، وعاداته ومألوفاته رأساً على عقب، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] وأحسب أن هؤلاء الذين يعتذرون بمثل تلك الأمثال، إنما هم قوم لم يبذلوا سبب التغيير، ولم يجدّوا فيه، فلذلك لم يغير الله عليهم طبيعتهم، ولو كان حقاً ما ذهبوا إليه لما تغيرت طبيعة الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يقتلون البنات الصغيرات، لا لسبب سوى أنهن فتيات، ويعاقرون الخمر، ويعبدون آلهة من الحجارة أو الخشب أو التمر، وكانوا إذا مات والد أحدهم ألقى عباءته على زوجات وإماء والده فيتحولن إلى ملكيته، ويفعل معهن ما كان يفعل الوالد، غيَّر الإسلام طبيعتهم، وقلوبهم من القسوة إلى الرأفة، حتى إنهم كانوا يبكون لكل شيء، وكان منهم المبشَّرين بالجنة والفاتحين لبلاد الله

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

الواسعة، ومنهم من وقف أمام عتاولة الكفر من القياصرة والأكاسرة دونما رهبة، وضحّى بالمال والأهل والولد في سبيل الله وأصبحوا هم وحدهم دون منازع قادة العالم، ولم يذكر عن أحد منهم أنه غلب عليه الطبع فاشتاق إلى الزنى أو الخمر أو قتل البنات أو أخذ أموال الناس بالباطل أو غيره من أمور الجاهلية بل قال الله فيهم وفيمن تبع نهجهم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[١].

ربما يغلب الطبع على بعض الناس الذين لم يبذلوا السبب الحقيقي للتغيير، ولم يخلصوا في تغيير أنفسهم ولكن أن تكون تلك القاعدة هي الأصل فهذا لعمر الحق افتراء على الإسلام أو جهل في طبيعته.

تعويض الله للعاملين في سبيله

يخبرني أحد الثقات من الإخوة عن طالب طب في إحدى الدول العربية، كان مشغولاً جداً في الدعوة حتى إنه لم يتسع وقته للمراجعة والتحضير لامتحان السنوات النهائية للطب، ولم يدرس إلا فصلاً واحداً، وعندما ذهب في الصباح لتقديم الامتحان راجع الأسئلة فلم يعرف منها شيئاً سوى ما يختص بذلك الفصل الذي درسه جيداً فأجاب عليها، ولاحظ من خلال

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

الإجابة أن واضع الامتحان اعتمد على طريقة ما في انتقاء الأسئلة، مثل أن يجعل سؤالين صواباً والثالث خطأ أو ما شابهها فاعتمد على تلك الطريقة ووضع الإجابة لجميع الأسئلة، وهو لا يعلم ماذا ستكون النتيجة، وعندما خرجت النتيجة كان قد أخذ الدرجة النهائية دون أي خطأ، وتجمع عليه الطلبَة يسألونه كيف حصل على ذلك وهو يخبرهم بما حدث له. وقصة حصلت لي عندما كنت أدرس الهندسة الإلكترونية في أمريكا، وقبل يوم الاختبار النهائي للفصل لإحدى مواد التخصص كنت ملزماً ببعض أعمال الدعوة، وقد دخل الشيطان إليّ يقنعني بأن أتخلى عن ذلك العمل وأستعد للدراسة، وكنت متردداً كثيراً قبل أن أتخذ القرار النهائي وهو ذهابي لذلك المكان، وأدائي لواجبي الذي علمت أنه إذا لم أقم به لن يقوم به أحد غيري، فتوكلت على الله، واليقين يملؤني بأني ما دمت أريد بذلك وجه الله، فلن يتركني سبحانه دون مساعدة في أمر دنيوي كالدراسة، وعندما رجعت لم يكن هناك وقت كافٍ للدراسة، فركزت معظم دراستي على ورقة امتحان قديمة، جاءني إحساس قوي يصل إلى درجة اليقين بأن الامتحان سيأتي مطابقاً لهذه الورقة، ولم أخبر أحداً بذلك. ويأتي يوم الامتحان وتوزع الأوراق. وإذا بي أذهل والورقة توضع أمامي «يا الله ما أحكمك وما أقدرك، أأصدق عيني، إنها نفس الورقة تماماً» هذا ما قلته لنفسي بعد أن صمت للحظات مذهولاً لقدرة الله العظيمة التي ترعى كل من يضحون في أوقاتهم في سبيله، ولست مزكياً لنفسي بذلك، وأعوذ بالله من هذا السلوك، ولكن أردت نقل تجربة حدثت عسى أن تكون

بهذا الذكر موعظة وعبرة لمن اعتبر، وتأكيداً أن الله سبحانه وتعالى هو مالك كل شيء، وأنه لن يترك أحداً يعمل في سبيله دون توفيق، وقديماً قالوا: «من ترك شيئاً للّه عوّضه الله خيراً مما ترك».

تصحيح المفاهيم

كل ما يسمعه المسلم من أمثلة أو قصص أو شعر أو غيره من الأمور الدنيوية، يعرضه على عقيدته فإذا وافقها قبل بذلك الذي سمعه وكان ذلك مسانداً لما يعتقده، وإذا كان معارضاً رفضه وصلح وصحح فيه ما يجعله موافقاً لعقيدته، ومفاهيمه الإسلامية، وكما جاء في السيرة والأحاديث الصحيحة أن الرسول ﷺ سمع الصحابة رضي الله عنهم وهم يحملون الحجر لبناء المسجد النبوي يقولون: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة». فقال: «**لا. بل للمهاجرين والأنصار**» فصحح ما سمعه من شعر إلى ما يوافق الحق. وهو أن المهاجرين هم السابقون ولهم الفضل في ذلك فلا يجوز أن يقدم عليهم أحد حتى وإن انكسر البيت.

ومثله ما فعله عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندما سمع لبيداً الشاعر يقول: وكل شيء ما خلا الله باطل. فرد عليه: صدقت.

ثم أكمل البيت: (وكل نعيم لا محالة زائل) فقال: (كذبت فإن نعيم الجنة لا يزول).

ومنها قولهم: «حشر مع الناس عيد» يريدون به اتباع

الأكثرية من الناس وإن كانوا على خطأ، حتى يبتعدوا عن نقد الناس، أو حتى لا يظهروا بمظهر الشاذ بين الناس، وهذا المثل يعارض ما جاء به الإسلام في ترك الإمعية، كما ذكر النبي ﷺ: **«لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسَنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»**[1]. وكما ذكر الله في كتابه الكريم في معرض كلامه عن أهل النار عندما سألهم أهل الجنة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾[2] إلى آخر الآيات. أي كانوا يخوضون بالباطل مع من يخوض دون تحكيم عقولهم، ودون تفريق بين الحق والباطل. وجاء في حديث عذاب القبر قول المنافق عندما يسأله منكر ونكير ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: «سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري...»[3]. وفي رواية البخاري ومسلم: «فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيقال: لا دريت ولا

---

(١) رواه الترمذي بإسناد حسن رقم ٢٠٠٨، (وقد صح عن ابن مسعود موقوفاً) جامع بيان العلم ٢/ ١١٢.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ٤٢ ـ ٥٤.

(٣) الترمذي الجنائز ٣/٣٨٣.

تليت...»[1]. فهذا يكون من أسباب عقابه أنه ألقى عقله واختياره وقبل بأن يكون إمعة لا عقل له، يتبع الناس بالخطأ والصواب حتى وإن كان على حساب عقيدته..

فلا نامت أعين الجبناء

الآن الساعة الرابعة والنصف من يوم الأربعاء الموافق الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٨٩ أتلقى نبأ الفاجعة بموت الحبيب الذي أحببته من أعماق قلبي، الشيخ تميم العدناني[*] في مدينة سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة بعد إصابته بسكتة قلبية، ما أعجب موتة هذا الرجل، كان أول لقاء لي معه وآخر لقاء من قرابة شهر عندما دعيت إلى أحد مخيمات رابطة الشباب المسلم العربي، حيث شاركني في محاضرة بعنوان «همُّ الآخرة»، حيث تحدث عن بعض أعاجيب قدر الله التي حدثت له في أفغانستان، وكان مما قاله أنه في أحد الهجومات الشيوعية على الثكنة التي كان يرابط بها رأى كيف أن الشظايا تنهمر كالمطر على سطح البيت الذي كان فيه، فتوضأ وصعد إلى أعلى البيت وأخذ مصحفه معه متمنياً أن تصيبه شظية فيذهب شهيداً وهو يقرأ القرآن. يقول: كانت الشظايا تنهمر حولي كالمطر ولا يصيبني منها شيء، وكان قد منع من المشاركة في القتال بسبب وزنه، فجاء إلى أمريكا يجمع المال للمجاهدين، ولتخفيف وزنه حتى يقبلوه مشاركاً في

---

(١) البخاري ٣/ ١٨٨، ١٨٩ في الجنائز.

(*) مساعد الشيخ عبدالله عزام شيخ الجهاد الأفغاني قبل أن يتلوث.

القتال، لينال أغلى ما كان يتمناه، وعندما التقيته كان كثير الدعاء بالشهادة، وأذكره عندما التزمني وهو يودعني وقال لي: إني أحبك في الله وقلت له كذلك، وطلب مني أن أدعو له بالشهادة وأمور أخرى، ويقدر الله أن يموت في أمريكا بعيداً عن دخان القذائف، التي طالما عاش بينها أمداً من الزمان، هكذا هو قدر الله فلا يموت أحد في يوم غير يومه، ولا يستطيع أحد أن يحدد المكان الذي يموت فيه، أو الطريقة التي يموت فيها، فالله هو المالك الحق للموت، وموت خالد بن الوليد وموت تميم العدناني وغيرهم من الأبرار عبرة للجبناء المحجمين عن الخوض في خضم دعوة الله المباركة خوفاً على أنفسهم أو أبنائهم أو زوجاتهم أو تجارتهم، فلو كانوا في بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم الموت إلى مضاجعهم، وكما قال خالد رضي الله عنه وهو على فراش الموت: «ألا فلا نامت أعين الجبناء».

زلزال في سان فرانسيسكو

زرت هذه المدينة في ولاية كاليفورنيا، بدعوة من رابطة الشباب المسلم العربي للمشاركة في أحد مخيماتهم، في الشهر التاسع من سنة ١٩٨٩، وقلت للأخ الذي استقبلني في المطار: سمعت أن هذه المدينة هي مدينة المخنثين في أمريكا فهل هذا صحيح؟ فقال: نعم، إنهم يسيطرون عليها تماماً، فالكلمة لهم وحدهم، والحكم لهم، فهم التجار وهم أصحاب الأعمال المهمة، والثروات الطائلة، وهم يقومون بفعل الفاحشة فيما بينهم في الشوارع، وأمام الناس في شوارع خاصة بهم دون أن يستنكر

أحدٌ عليهم، وقال فيما قاله: إننا نخاف أن ينزل العذاب في هذه المدينة. وأذكر أني قلت له أو لأحد غيره: ربما إذا أراد الله أن ينزل عذاباً لأمريكا فسيبدأ بهذه المدينة لما فيها من علانية لمعصية من أنجس المعاصي وأخسها، وبعد شهر من هذه الزيارة في يوم الثلاثاء ١٩٨٩/١٠/١٧ نسمع بأنباء حدوث زلزال عنيف بلغت درجته ٦,٩ من ٩ بمقدار رختر قتل فيه ما يربو على المائتين والسبعين وجرح أكثر من ألف شخص وتحطمت الجسور العظيمة، وسقطت السيارات في المياه، واشتعلت النيران في البيوت، وتصدّعت المباني العظيمة وانقطعت الاتصالات عن العالم لمدة ثلاثة أيام، وما زال البحث جارياً عن الجثث تحت الأنقاض، كل ذلك حدث في فترة زمنية مقدارها خمس عشرة ثانية، هذا لون من ألوان عذاب الله والذي يقف الإنسان في أمريكا أمامه عاجزاً تماماً أن يفعل شيئاً لإيقافه أو حتى التخفيف منه، مع ما توصل إليه من تكنولوجيا بلغت به كواكب السماء، وهذا العذاب هو نوع من الإنذار لهذا الإنسان الذي اتخذ العلم والمادة إلهاً من دون الله، بأن هناك إلهاً آخر غير العلم هو أحق بالعبادة، وهذا الإله يمهل ولا يهمل ويغضب إذا انتهكت محارمه، وإنه إذا أخذ فإنه يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

[إضافة أن الإنفجار والحريق شب في بيت اللواطة دون غيره من البيوت].

التساهل مع النفس

عندما تدعوك نفسك لأمر سوء، أو ترك واجب أو التقصير

فيه، وتقبل بذلك، فإنها تتجرأ عليك لما هو أكثر حتى تجذبك إلى حيث لا تستطيع العودة لما كنت عليه. ومثال ذلك إذا نمت متأخراً ولم تأخذ نصيبك الكافي من النوم، فإذا ما جاء وقت الفجر، وسمعت صوت المنبه، أو من يوقظك، قالت لك النفس: إنك لم تأخذ نصيبك من النوم، وأنت من المعذورين فيمكنك أن تصلي في البيت، فإذا أطعتها تجرأت عليك، وطلبت منك أمراً آخر أوجب من الأمر الأول، حتى تكون عبداً لها تأخذ بناصيتك حيث شاءت.

رجل من الجنة

هو ذلك الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ: **«يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه»**[1] فتبعه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وبات عنده ليرى العمل الذي استحق به هذه البشارة من النبي ﷺ وعندما لم يرَ شيئاً زائداً عما يفعلونه سأله عما استحق به هذه البشارة فأخبره بأنه **«ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه»**.

ما أجمل أن يرتقي المسلم إلى هذه الدرجة من الأخلاق والتنازل لحقوقه، ويصل إلى هذه الدرجة من التصفية القلبية، فلا يعرف القلق والتفكير والانتصار للنفس وغيرها من الأمراض

---

(١) رواه أحمد ـ ٣/١٦٦ وصححه الأرناؤوط (شرح السنة ١٣/ ١١٢).

إلى قلبه سبيلاً فيكون صافي البال دائماً لا يوجد في نفسه شيئاً سوى الله تعالى، وهذا الأمر الذي أعد نفسه له في سبيل مرضاة خالقه، فإن اهتم فإنما يهتم لدعوته.

ما أجمل أن يأوي المسلم إلى فراشه، وبعد أن يدعو بالأدعية المأثورة، يتفكر بما حدث له سائر اليوم، فإن رأى استنقاصاً لحقه من أحد إخوانه دعا له واستغفر له ونوى مسامحته، حتى ينتهي من أحداث ذلك اليوم، ويسلم نفسه للنوم وهو مرتاح البال صافي النفس، قد أنهى صحيفته ذلك اليوم بعمل من أعمال أهل الجنة.

لحظة اليقظة

كان رجلاً عامياً من عامة الناس الذين تعوّدوا الكسل في شؤون دينهم، وجهلوا ما أراد منهم الجليل وحثهم عليه رسوله ﷺ من تعلُّم العلم، وهو من الذين يمقتون القراءة، ويكتفون بما رأوا عليه آباءهم وأجدادهم، حسبوا أن هذا هو الدين وغيره محدث...

جلس إلى حلقة كنت أديرها لبعض الشباب الذين يصغرونه سناً، لتعلم أحكام التجويد، حتى إذا وصله الدور وقرأ، وبدت عليه الجهالة والخطأ الكثير، فكنت أصلح له الخطأ مرة بعد مرة حتى رأيت عليه الإحراج واحمرار الوجه، والضيق الذي لم أعهده عليه غير ذلك الوقت، فلما انتهينا من الحلقة، انفرد بي وكان غاضباً عليّ بسبب إحراجه أمام من يصغرونه سناً، وانقطع

عني فلم أعد أراه كما كان من قبل. حتى رأيته بعد مدة من الزمن يأتيني ويدعو لي بالخير، ويتأسف عما بدر منه، وقال لي: كانت تلك اللحظة التي جلست معكم لتعلُّم التجويد هي نقطة البداية التي جعلتني أسأل نفسي كيف أكون بهذا السن ولا أعرف أحكام الدين، وهؤلاء الفتية أحسن مني، هذا دعاني لأستدرك ما فات من عمري، فقررت الالتحاق بكلية الشريعة لتعلم العلم، وملازمة العلماء، وما هي إلا سنة أو أكثر إلا وذلك الرجل ينقلب رأساً على عقب من ذلك الإنسان الذي لا يميل للقراءة، ويجهل أحكام الدين، إلى الرجل الذي يقرأ أكثر من مرجع من أمهات مراجع الفقه والحديث واللغة ويعرف الكثير من أقوال فحول العلماء، وما من كتاب حديث تصدره المطابع إلا كان سبّاقاً لقراءته...

وكلما رآني ذكّرني بتلك اللحظة من لحظات اليقظة. الإنسان عندما يغلق جهاز الإحساس، تتوقف عنده عملية اليقظة بسبب تبلُّد الحس، أما ذلك الإنسان ذو الإحساس المرهف المتفتح دوماً لكل ما يسمع ويرى، فهو الذي يحظى بنوبات اليقظة مرة بعد مرة، فتغير الكلمة الواحدة، والمنظر الواحد من حياته وعاداته ومألوفاته الكثيرة، فيقطع المسافات الطويلة بوقت قصير. يروى أن الإمام الطبري عندما كان غلاماً، ورأى خطه أحد العلماء قال له: «إن خطك يشبه خط العلماء» هذه الكلمة عملت عملها في نفسه فأعد نفسه من تلك اللحظة لأن يكون عالماً، وكان ما كان، فأصبح شيخ التفسير والتاريخ وغيرها من العلوم. وكذلك الإمام سيبويه يروى أنه قيل له في حلقة الفقه

بعدما ألحن بسبب أعجميته «أخطأت» فقام من الحلقة وقال: والله لأتعلمن علماً لا يقال لي فيه أخطأت. وكان أن أصبح شيخ اللغة بلا منازع. تلك لحظات اليقظة التي لا يرزقها إلا من فتح أبواب الإحساس في نفسه. ولم يقل:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

الطبيعة الثابتة

هناك فئة من الناس تتغير طبيعتها بمجرد إصابتها ببعض المصائب، الأمر الذي يجعل ذلك الإنسان إنساناً آخر تماماً يختلف عن طبيعته قبل أن يصاب بتلك المصيبة، فتتغير الوداعة إلى غضب، والابتسامة إلى عبوسة، والكلمة الطيبة إلى الكلمة القاسية، وربما يرجع ذلك إلى نسيان المقدر، والرضى بما قدر.

الصدمة الأولى

عن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبر فقال: **«اتقي الله واصبري»** فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي! ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»**[1].

في هذا الحديث القصير يضع النبي ﷺ أساساً عظيماً من

(١) البخاري ٣/١٣٨، مسلم (٩٢٦).

أسس التربية، والتي يغفل عنها الكثيرون من الناس، ويشير في نفس الوقت إلى قضية تربوية بالغة الخطر ألا وهي انعدام التخلق بالخلق حين وقوع الصدمة، فالكثيرون من الناس يعرفون الكثير من الأخلاق، ويقرؤون الكثير عنها، ويستمعون من الكثير عنها، ويحسبون أنه قد تخلّق بها، ولكنهم يفتضحون إذا ما وقعت الصدمة أو البلاء الذي يظهر ذلك الخلق، وفي هذه الكلمات القصيرة من المربي الأول ﷺ أراد ﷺ أن يغرس ذلك الأساس التربوي في نفس تلك المرأة، ولمن بعدها من الناس، بأن من تخلق بخلق ما فإنه لا يبرز عند الرخاء فقط، فإن الرخاء لا يظهر حقيقة الأخلاق التي ندّعيها، وإنما يبرز عند الشدة، فمن كان صبوراً فهو يصبر من أول البلاء حتى آخره، وليس بعد أن يذكره الآخرون، ويصبروه، وكذلك الحليم فهو يحلم على من سفه عليه أو تعدى على حق من حقوقه في قمة تلك السفاهة أو ذلك التعدي، يبرز فيه ذلك الخلق من البداية حتى النهاية، وليس بعدما يرد على الذي سفه عليه كلمة بكلمة، أو ينتقم لنفسه ثم يقول: «سامحك الله». . . إننا كثيراً ما ننخدع عندما نحسب أننا قد تجاوزنا بعض الأخلاق، ثم نكتشف عند سقوط البلاء أننا بعد في مراحل الطفولة لتلقي تلك الأخلاق.

تعرف على الله في الشدة والرخاء

إن مما جاء في الترمذي بإسناد صحيح قول النبي ﷺ: **«تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**[1].

(١) رواه أحمد والطبراني ـ وصححه الألباني (ص.ج.ص: ٢٩٦١).

إن الكثير ممن يصابون بالبلاء، أو إذا احتاجوا لقضاء حاجة من الحاجات أقبلوا على الله، والتزموا بيوت الله، وأكثروا قراءة القرآن، لكي تقضي حوائجهم أو ترفع عنهم تلك المصائب، وإذا ما انجلت تلك المصائب، أو أعطاهم الله حاجتهم قلّ ذلك الإقبال. وذهب ذلك الخشوع، وأدبر ذلك التذلل، إن الرب الذي نعبده عند المصائب هو الرب ذاته الذي نعبده عند النعم، وإن للّه سنناً لكل شيء، وإن لكل سبب مسبّباً، فلا يتوقع الزارع أن يخرج الله له الثمر بالمطر فقط دون أن يزرع شيئاً، إننا نؤمن بقدرة الله على كل شيء ولكنه شاء أن يجعل سنناً وقوانين تسير عليها الأشياء، ومن سننه أن السبب لا يقع إلا بمسبب، فإذا أردنا أن يقبل الله علينا، يجب أولاً أن نقبل عليه، ولقد بيّن سنته هذه عندما قال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] وقال في الحديث القدسي: **«يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك، ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملإ ذكرتك في ملإ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبراً دنوتُ منك ذراعاً، وإن دنوتَ مني ذراعاً دنوتُ منك باعاً، وإن أتيتني تمشي، أتيتُ إليك أهرول»**[2].

فلا بد أن يبدأ التقرب من الإنسان إذا ما أراد أن يتقرب منه الله تعالى، وإن من كرمه أنه يتقرب أضعاف ما يتقرب إليه العبد، على أن يكون هذا التقرب صفة رئيسة في ذلك المتقرب

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح (الصحيحة ٢٠١٢).

لا صفة وقتية محدودة بحاجة ما، أو لرفع مصيبة ما، فإن الله ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[1].

كيفية الدخول إلى النفوس

لكل نفس مداخل متعددة، ولكن ليس كل مدخل يوصل إلى القلب، إن انفتاح الأبواب الكثيرة للنفس الواحدة يغري الكثير بأن يلجوا إلى واحد منها دون تفكير وروية ما إذا كان ذلك الباب يوصل إلى قلب ذلك الإنسان، تماماً مثل لعبة الطريق المسدود التي نرى فيها مداخل كثيرة في المربع، ولكن حتماً هناك طريق واحد في اللعبة يوصل إلى الهدف، قد تكون بعض المداخل مغرية، وسهلة ولكنها لا توصل، إن على الدعاة الوعاة أن ينتبهوا لهذا المزلق، ويتأنوا قبل أن يقرروا أي طريق يسلكوه، وأي مدخل يدخلوه لهذا الإنسان، قبل أن يتورطوا بالدخول في طريق مسدود، وبعد ذلك يصبح من الصعب القيام بمحاولة أخرى.

أخطأت فنصحني

في ذات يوم، وكطبيعة كل إنسان، أخطأت في اتخاذ قرار من القرارات، وكنت أظن أن ذلك كان سليماً لا يعتريه أدنى شبهة، فنبّهني أحد الإخوة إلى الخطأ الذي كان في ذلك القرار، ووضّحه إيضاحاً أزال به كل حجة تجعله في صف القرارات

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٩.

السليمة، وفكرت بما قال، وإذا بالأمر يتضح لي جلياً أن ما قررت كان خاطئاً، وشعرت بجمال النصيحة والتي من معانيها التنقية، يقال: نصحت العسل أي نقيته من الشوائب، وحمدت الله أن نصحني ذلك الأخ في الوقت المناسب، فلأن أخطىء في الدنيا وأنبه إلى ذلك خير وأحب إليّ من أن أُعاقب في الآخرة بسبب ذلك الخطأ، وهذه إحدى فوائد الأخوة في الله، إنك تجد من يعينك على الحق دوماً، فيكون معظم قراراتك صائبة بإذن الله، وهنا يتضح أيضاً جمال النصيحة، إنها تساعد في تقدمك إلى الجنة، وإبعادك عن النار، وإبعادك عن الندم يوم العرض الأكبر، وكلما تذكرت تلك النصيحة فرحت، ودعوت لذلك الأخ بالخير، وتذكرت قولة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي.

هذا القرآن

عندما يقوم أي مصنع بصناعة آلة أو جهاز ما فإنه يرفق مع هذا الجهاز كتيباً صغيراً يرشدك على كيفية استخدامه وطرق إصلاح الأعطال التي تبدو في أثناء التشغيل، ويحذرك من استخدام (فولتية) أكبر مما يتحمل لكي لا يحترق أو عدم استخدام (فولتية) أقل مما يحتاج فلا يعمل، ويذكر في هذا الكتيب أيضاً خطوات التشغيل، ومحتويات ذلك الجهاز، والمميزات التي تختلف عن غيره من الأجهزة وكيفية الاستفادة من هذه المميزات، وغيرها من التفاصيل التي يحتاجها المشتري لكي ينتفع الانتفاع الكامل بما اشترى، وهذا تماماً ما حدث

للقرآن الكريم مع الفارق الكبير في التشبيه.

فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان أرسل كتباً وكان ختامها القرآن الكريم والذي بيّن فيه العناصر التي خلق منها الإنسان، والفرق بينه وباقي المخلوقات، ومميزاته التي يمتاز فيها عن غيره من باقي المخلوقات، وعيوبه، وكيف يصل إلى إصلاحها، ويبين في هذا الكتاب تفاصيل دقيقة عن طرق الابتعاد عما يضعف هذا المخلوق، وطرق الدفاع عن النفس في حالة هجوم الأعداء سواء الداخليين كالنفس، والشهوة، والهوى، والشيطان. أو الخارجيين كالدنيا، وأصحاب السوء والفسَقَة والكفار، وبين صفات المناخ الذي يقوي من أداء هذا المخلوق، والمناخ الذي يضعف من أدائه وربما يودي بموته وهو يمشي، وأرشد في هذا الكتاب عن الجهاز الصغير الذي خلقه ضمن هذا الجهاز الكبير والذي يسير باقي ما في هذا الجهاز الكبير وهو العقل، وبين الكثير من الأمثلة لأجهزة مماثلة في الصنع كيف حدث بها عندما أسيء استغلالها وجهل بكيفية تشغيلها فكما أننا كبشر نرجع إلى كتاب الجهاز الذي اشتريناه وعندما نجهل بعض أمور التشغيل أو الإصلاح فنهتدي بذلك للطريقة المثلى للتشغيل، لأن صانع ذلك الجهاز هو أدرى الناس به، وبما يشغله ويحطمه، كذلك الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى، هو الأعلم بما خلق وبما يسعد ذلك المخلوق، وبما يفسده ويحطمه فوضع هذا الكتاب ليكون المرجع لكل حركة من حركات هذا المخلوق، وإلا فإنه سيتيه في خضم الاجتهادات الحمقاء من غير الرجوع إلى خالقه الذي هو أعلم منه بما يسعده

ويحزنه ويحييه ويميته. ذلك هو القرآن الكريم.

المدعو الجديد

المدعو الجديد كالطفل الصغير، لا يعرف ما هو الخطأ وما هو الصواب، لأنه جديد على هذا الدين، وكما أن الطفل يقدم على فعل الكثير من الأخطاء ليس تعمداً ولكن لأنه لا يعرف قوانين البشر، ولا يعرف الخطأ من الصواب، ومن الحماقة والجهل أن يضرب الطفل الصغير لاقترافه الخطأ قبل أن يعلم ويرشد بما يحتمله سنه للفهم والتمييز، أما وهو طفل صغير لا يميز الأشياء فلا يُضرب لجهله وعدم قدرته على استيعاب الخطأ من الصواب، وعندما يترك الطفل يعبث ويخطىء دون إرشاد حتى يصل إلى سن المراهقة، يصبح بعد ذلك من الصعب جداً أن يرشد إلى الصواب، ومثل ذلك يقال عن المدعو الجديد فإنه عندما يدخل في هذا الأمر نجد منه أخطاءاً كثيرة، ليس تعمداً منه ولكن بسبب جهله في هذا الأمر، فمن الخطأ تعنيفه وزجره بل يجب الرفق ما أمكن، والحلم على أخطائه كما يفعل مع الطفل الصغير، ونرشده إلى الصواب فيدرك أنه ما أقدم عليه كان خطأ فيتجنبه بعد ذلك، وهو قد كسب بذلك خبرة وعلماً جديداً، وإرشاداً بعد إرشاد يصحبه حلم ورعاية وعطف ورفق ينتج بعد ذلك رجلاً صلباً نافعاً عالماً بما له وبما عليه؛ منتجاً لهذه الدعوة المباركة، أما إذا عومل بقسوة من أول خطأ أخطأه، ولم يجد من يرشده برفق ومحبة ورعاية وصبر على أخطائه وهو في السلالم الأولى، فإن هذا

يؤدي به إلى إحدى نتيجتين: إما أن يرجع إلى ما كان عليه من الجهالة والفساد، وإما أن يعتزل الجميع ويحاول إصلاح نفسه بنفسه، مما له أكبر الأثر في نشوء خصال غريبة فيه من الصعب إصلاحها بعد ذلك، وربما حقد على الجميع، وسبّب في نشر فتن كثيرة دون ورع في غيبة أحد من الدعاة، ودون أناة في اتخاذ الكثير من القرارات والاتهامات، وصورة أخرى لهذا المدعو الجديد، أنه يترك ويهمل دون رعاية ودون توجيه حتى يصل إلى مرحلة المراهقة الدعوية فيصبح من المتعذر جداً بعد أن خطّ له خطاً لوحده أن يستمع من أحد أو يقنع برأي أحد، فهذا يخرب أحياناً أكثر من جيش منظم، وكم رأينا من أمثال هؤلاء واجتهاداتهم، ما ترتب عليه الكثير من الفتن والمصائب التي جرّت على الدعوة والدعاة الكثير من الويلات.

الغربة

ما أشد الغربة على الإنسان.

ما أصعب أن يفارق المرء زوجه وأبناءه وهم في عمر الزهور، وخاصة إذا كانوا بحاجته، وما أشقها من لحظات تلك التي يرى فيها المرء دموع الوالدة وهي تتعلق فيه تجذبه إليها، وكأن قطعة من جسدها تريد أن تنفصل، وما أحزن فراق أولئك الإخوة في الله، الذين بدأ حياته الدعوية معهم، وما أمره من وقت يترك فيه المرء بلده ليذهب إلى بلاد الكفر والمادية الطاغية على جميع القيم، ليعيش هناك غربة الدين، وغربة القيم والأخلاق، وغربة الأصدقاء والأعزاء، وغربة الالتزام الصحيح

من الالتزام الروتيني، وغربة البلد، وليقع بعد ذلك بين ضغطين: ضغط تلك الغربة القاسية، وضغط الإباحية الضاغطة بكل ألوانها وأشكالها.

وأمام هذين الضغطين ينقسم الناس في تلك الغربة إلى أربع:

الأول: من يخاف من هذين الضغطين بأن يسببا في زلله بعد الالتزام الذي جاء به من موطنه الأصلي، فيعتزل كل شيء، يعتزل الشر والخير، ومن مظاهر هذه العزلة:

- التقوقع التربوي: وهو الانغلاق على نفسه، والعيش منعزلاً عن الآخرين خوفاً من السقوط.
- عدم الاتصال بإخوانه من الصالحين.
- نوع من الوحشة يجدها في نفسه.

الثاني: وهو الذي يتعادل عنده هذا الضغط مع التربية الذاتية لنفسه، مما يؤدي إلى نوع من الخلط بين التزامه بالدين وبين التخفيف الجزئي من هذين الضغطين، فيبيح لنفسه التحدث مع النساء دون مرافقتهن، ويكثر من النظر للتلفزيون لقضاء وقته، ولتخفيف ضغط الإباحية، ويخالط الشباب الملتزم وغيرهم ما داموا من بلده، ويلاحظ عليه كثرة الاعتذار عن الأنشطة الإسلامية، ويكون حضوره مزاجياً منقطعاً غير ثابت، وهذا النوع على خطر عظيم، إذ أنه قد ينقلب على عقبه في أي لحظة فيزول كل الخير الذي تبقى معه.

الثالث: من تطغى قوة الضغطين عليه، فيستسلم لهما، ويتنازل عن كل القيم التي جاء بها، لينهار تماماً أمام هذا الضغط ويفعل كل ما حرَّم الله تعالى.

الرابع: هو من تتغلب عنده التربية الذاتية على ذلك الضغط مما يؤدي إلى كثرة حضور الأنشطة الإسلامية:

- الحرص على الاتصال بالإخوة الصالحين.
- الحرص على الصلاة في المسجد.
- وضع برامج إيمانية خاصة فيه يربي نفسه من خلالها.

خلق الله

من نافذة الطائرة التي تقلني إلى أمريكا أنظر إلى منظر السحاب بأنواعه العجيبة، وأشكاله الغريبة، وطبقاته المتباعدة فأتعجب لقدرة الخالق العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه.

فنوع من السحاب شكله كالجبال تماماً.

ونوع كالسهول والأودية.

ويشكل هذان النوعان معاً منظراً خلاباً كأنه جبال وسهول ووديان غطتها الثلوج.

ونوع آخر كالرمال المتدرجة، التي نراها في الصحارى بسبب تعاقب الرياح عليها.

ونوع ضعيف شفاف، وآخر ثقيل كثيف.

ونوع ثابت لا يتحرك، وآخر سريع الحركة.

وبين كل طبقة وطبقة مسافة بعيدة، وأنا فوق هذه الطبقات أرى تداخلها مع بعضها فلا أملك إلا التسبيح والإعجاب لقدرته عز وجل.

خوف الإنسان

الكثير من الناس ينتابهم خوف شديد، وجزع، عند ركوبهم الطائرة، ولا يهدؤون إلا حين تحط على الأرض، والبعض منهم ترى آثار الفزع على وجهه بادية، وبعضهم إذا ما صادفت الطائرة مطبات هوائية، تراه ينسى كل من حوله، ويظل مرعوباً حتى تحط الطائرة.

ومن الغريب أن هذا الإنسان ذاته إذا ما نزلت الطائرة، عادت البسمة على وجهه، ثم عاد إلى الغفلة لتغلف كل حياته وهو على الأرض.

أفلا يعلم هذا النوع من الناس أن الإله الذي يستطيع أن يوقع الطائرة هو ذاته الإله الذي يستطيع أن يأخذه بأي حادث وهو يدب على الأرض.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾[1].

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٦، ١٧.

هو ذاته الإله الذي يأخذ البعض وهو معاف من الأمراض، ويطيل في أعمار البعض الذين غزتهم الأمراض الخطيرة، فالخوف الحقيقي من الله هو ما يدوم في كل وقت وكل ظرف، فلا ننسى أن عين الله لا تغفل، وأن قدرته لا تعجز عما خلق.

فرصة النجاة

ما أكثر ما تحدث في حياتنا حوادث وكوارث ومصائب تكفي الواحدة منها أن تسحق الإنسان سحقاً، وتهشم عظامه، مثل حوادث السيارات والغرق ووقوع هدم، أو زلزال أو حريق وما شابهها من حوادث خطيرة، ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينقذ الإنسان منها، ويتعجب كيف أن غيره قضى بأقل منها وهو لم يصب بشيء، وإذا ما تأمل سبب الإنقاذ رأى العجب العجاب.

فمنها التنبيه لهذا الإنسان على خطأ ما في حياته، يريد الله أن يعطيه الفرصة قبل النهاية الأخيرة لإصلاحه.

ومنها لزيادة إيمان العبد بأن ما أخطأه ما كان ليصيبه وما أصابه ما كان ليخطئه، وأن كل شيء بمقدار.

ومنها إلجاء العبد له، وزيادة تقربه له، ليبعد عنه حالة الجفاء التي يمر بها معه سبحانه.

ومنها إثبات قدرته تعالى، وإثبات عجز الإنسان الذي في حقيقته فقير إلى الله خالقه.

ومنها حث الذي نجا إلى المبادرة إلى عمل الصالحات

قبل أن تأتي الضربة التي ليس فيها قيام.

ومنها زيادة الإحساس بالموت ورؤيته، ثم النجاة منه وكأنه بعث جديداً للحياة فماذا عساه أن يفعل.

ومنها إسقاط الدنيا بما فيها من عين ذلك المصاب.

ومنها أن يكون عبرة لمن يصرون على مواصلة طريق الشر، بأن الله قادر على أن يأخذكم في أي لحظة يشاء.

هذه الفرص مِنَح ونِعَم من المولى يعطيها لعبده، لكن يتيح له وقتاً أكثر لعمل الصالحات، فإذا ما تكررت هذه الفرص ولم يستفد منها، فإن الله تعالى يشاء بأن يعمي قلب ذلك العبد الذي لم يتعظ عندما كان قاب قوسين أو أدنى من الموت.

التخطيط للآخرة

يستغرب الكثير من هذه العبارة، ويحسبون لأول وهلة أنها عبارة محدثة ليس لها صلة بالإسلام، وهو اعتقاد خاطىء، وذلك لأن الله خلقنا بالأصل للعبادة، فيجب أن يكون التخطيط لها من باب أولى.

الكثيرون من الناس وللأسف الشديد حتى من الملتزمين بهذا الدين يخططون تخطيطاً دقيقاً لأمور الدنيا لينجحوا في إنجازها في الوقت المحدد. ومثالاً على ذلك إذا أراد أحدهم أن يلعب في أحد النوادي الساعة السابعة مساءاً، فإن كان طالباً نراه يقوم بأداء جميع الواجبات المنزلية مبكراً، وإذا كانت له مواعيد تتعارض مع هذا الموعد فإنه ينظمها بشكل بحيث لا تتعارض،

يؤخر هذا ويقدم هذا، فإذا جاء موعد صلاة العشاء وظنّ أن الصلاة في ذلك المسجد سوف تؤخره عن موعده فإنه يذهب إلى مسجد أسرع حتى يستطيع اللحاق بموعد اللعب، ونراه يؤخر العشاء إلى ما بعد اللعب حتى لا يؤثر عليه أثناء اللعب. حتى يأتي موعد اللعب وهو مستعد له تمام الاستعداد، وجاء بالموعد المحدد أو حتى قبله لئلا يفوته شيء من اللعب.

وإذا كان موظفاً فكذلك يغير مواعيده جميعها حتى لا تتعارض مع ذلك الموعد فزوجته يبعث بها إلى بيت أهلها بعد المغرب، وحاجات البيت يشتريها بعد العصر، والحاجة الفلانية يتصل بأحد الإخوة لإنجازها، ويتصل بآخر ليستأذنه بتأخير موعده الذي سيتعارض مع موعد اللعب، وهكذا يؤخر هذا ويقدم هذا حتى يستطيع الذهاب إلى موعد اللعب وأداء ذلك النشاط بنفس الوقت المحدد.

هذا ما تعوَّد عليه معظم الناس، إنهم يخططون بكل ما أوتوا من طاقة لإنجاز أمور الدنيا.

ولكن القليلين الذين يخططون لأمور الآخرة، وهذا ناتج عن عدم الإدراك لمهمة المؤمن في هذه الحياة، ونسيان أو تناسي أن للمسلم مواعيد مهمة مع الله، ومواعيد مهمة لتربية نفسه حتى تثبت على هذا الأمر.

ومن أمثلة هذا التخطيط للآخرة: قيام الليل.

فإن هذا الملتزم عندما يخطط أنه سيقوم الليل في الليلة الفلانية من الأسبوع، فإنه يلغي أو يعيد ترتيب كل موعد يؤخره

في الليل حتى يستطيع النوم مبكراً، وكذلك يخفف من الطعام في تلك الليلة، وكذلك يخفف من المجهود العضلي الذي قد يرهق المرء فيكون الاستيقاظ صعباً.

وكذلك من خطّط للاستماع إلى حلقة علم، فإنه يرتب جميع مواعيده حتى لا تتعارض مع تلك الحلقة، ويقضي جميع حوائجه وحوائج أهله بفترة كافية قبلها، حتى يحضر بالوقت المناسب لئلا يضيع عليه شيء من العلم.

إن مما يحزن أن الكثيرين يتهاونون في التخطيط لأمور الآخرة ولا يحزنون لفواتها، بينما يحرصون كثيراً على التخطيط لحظ نفسه من أمور الدنيا ويحزنون لفواتها.

التحايل على النفس

هذه النفس البشرية من أعجب ما خلق الله تعالى وهي مستعدة للتقلب كما ذكر الله تعالى.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[1].

وعلى مقدار ما يبذل الإنسان من جهد تتشكل إما في اتجاه التقوى أو اتجاه الفجور.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[2].

والمشكلة التي كثيراً ما تقع عند الكثير، هي عدم فهمهم

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

لهذه النفس المتقلبة، والمستعدة للتقلب، من الفجور إلى التقوى والعكس، وكما ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أن الأصل فيها أنها أمّارة بالسوء: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[1] وهذا الاستثناء خاص بمن قاموا عليها بالتربية والتزكية الدائمة حتى تحولت إلى نفس مطمئنة أو لوّامة أقسم الله بها في القرآن الكريم.

وحتى ينجح المسلم في هذه التربية لا بد أن يعرف الصفات الرئيسة لهذه النفس، والطرق السالكة للوصول إلى أغوارها بسلام دونما تعثر. ومن أهم صفاتها وطبائعها:

١ - أنها كما ذكرنا مهيأة للتقلب من الصلاح للفجور والعكس وهذا مقترن بما يبذل الإنسان من جهد لتربيتها أو تدسيتها.

٢ - أنها تشابه العضلة من حيث النمو والترهل، فالعضلة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في جسم الإنسان تصلب وتشتد وتقوى كلما بدأ الإنسان بذلك الجهد البشري الذي يسمى الألعاب الرياضية، وأنه إذا ما أرهق نفسه بالكثير من هذه الألعاب في بداية الأمر دون التدرج فإن ذلك يُحدث ردود فعل قد تحرمه من اللعب طوال حياته، أو لعلها تترك فيه عاهة مستديمة أو مؤقتة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

٣ - وأن هذه النفس مثل هذه العضلة من حيث النمو التدريجي فهي تنمو شيئاً فشيئاً حتى تصلب وتشتد فالذين يحملون الأثقال والحديد، لا تكون أجسامهم بهذه الروعة من التقسيم العضلي إلا بعد جهد يطول سنين كثيرة وليس بتمرين واحد أو اثنين إنما تتدرج بالنمو.

٤ - ليحافظ على نمو هذه العضلة لا بد من الاستمرار في التمارين، فإذا ما حدث الانقطاع تتحول هذه العضلات إلى شحوم وترهلات، وينقلب ذلك الجسم الجميل إلى قبيح.

٥ - وكذلك ينصح خبراء الرياضة أن يبدأ المرء بالتمارين السهلة، حتى يتقنها ثم يتحول إلى الصعب منها.

ومن هذا كله نستطيع أن نرسم خطة عمل لتربية تلك النفس حتى نستطيع برحمة الله وفضله أن نسبر أغوارها ونصل فيها إلى القمم بأسهل الطرق وأسلمها:

أولاً: يجب أن نبدأ معها باليسير من الطاعات فالمهتدي الجديد أو الذي قطع بعد وصول القمم مدة ثم عاد يجب عليه أن يلزمها باليسير الذي يتناسب مع مستواها من حيث الاستطاعة حتى لا تنفر في بداية الطريق. ومن الأخطاء القاتلة إلزامها مع شدة الحماس في البداية بالشاق من الطاعات والكثير من العبادات، فتنفر نفرة شديدة لأنها غير مهيأة لحمل ذلك - كما هو حال العضلة.

ثانياً: التدرج في الخطوات، ومثالاً على ذلك أبدأ معها في عبادة مثل القيام بالخطوات الآتية:

أ - ركعتان قبل النوم يقرأ فيهما من قصار السور لمدة معينة قد تكون ثلاثة أشهر أو أكثر حتى إذا ما رأى من نفسه قوة أكثر انتقل إلى طوالها.

ب - أربع ركعات قبل النوم يقرأ فيها من قصار السور لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر.

ج - أن يبقى على هذه الأربعة قبل النوم، ويضع في نيته ليلة يقوم فيها بست ركعات في الأسبوع. ويستمر في ذلك مدة من الزمن.

د - فإذا ما رأى طاقة من نفسه وقوة، حدد ليلة في الأسبوع واحدة يقوم فيها قبل الفجر بعشر دقائق يصلي فيها ركعتين قبل الفجر ويستمر على ذلك مدة من الزمن قد تطول، حتى يرى من نفسه قوة فيزيد.

وهكذا تستمر الخطوات في باقي العبادات، والأصل في كل ذلك التدرج، وليس هناك نصوص في القرآن أو السنة تدل على عدد معين لكل خطوة، إنما هو اجتهاد من الأصل الذي دلّنا عليه النبي ﷺ فيما قال: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**»[1].

وفي رواية: «**ولا يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[2].

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن (ص ج ص ٢٢٤٦).

(٢) رواه البخاري في المرضى ١٠٩/١٠ وله تكملة.

ثالثاً: الاستمرار في التربية، والقاعدة في ذلك أن ترك النفس فترات منقطعة، وغير منتظمة ومستمرة يعرضها للتذبذب والضعف، يطرأ عليها تماماً كما يطرأ على العضلة حينما يعاملها الرياضي بنفس هذه المعاملة.

والرسول ﷺ يضيء لنا نوراً من أنوار الرسالة التي تعيننا على هذه التربية، عندما قال: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[1].

رابعاً: سؤال الخبراء والتأكد من الخطوات. ولأن هذا الأمر يزلّ فيه الكثير وربما يخرج الإنسان فيه عن الجادة الصحيحة، فيسلك دروباً لا تصح فيتيه، ويصعب بعد ذلك عودته، كان لا بد من سؤال الخبراء في هذا المجال، السالكين هدى النبي ﷺ، البعيدين عن المبتدعات على هذا الدين ليدلوه على الطريق الصحيح، وليصححوا مساره إن كان على غير السنة، تماماً كما يفعل من يريد تربية عضلته فإنه يسأل خبراء الرياضة عن الخطوات الصحيحة لذلك، لئلا يحدث له ما لا يحمد عقباه.

وهذا لا يدركه إلا من عرف طبيعة النفس وأدرك الجو الذي تعيش فيه كما أدركه مصطفى صادق الرافعي حين قال: «كالشجرة جو يكسوها.. وجو يذبلها.. وجو يسلبها سلباً.. وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو»[2].

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) وحي القلم ٢٠١/٢.

وهذا الذي ذكرناه شيءٌ يسيرٌ من فنون تربية النفس يلتزم بها الإنسان رويداً رويداً، حتى يخرجها من إطار الأمر بالسوء إلى دائرة الطمأنينة واللوم. مما يجعله يرتقي دوماً في مدارج السالكين.

كيف تكسب القلوب

سؤال يتردد على شفاه الكثير من الدعاة، ذلك لأن كسب القلوب هو المدخل الطبيعي والرئيس لدعوة الآخرين وهدايتهم، فقد جبل الإنسان، كل إنسان على تقبل حديث من مال إليه قلبه، وليس لمن أعجب بمنطقه وبلاغته، وهذا هو السبب الذي يغيب عن الكثيرين عندما يرون ذلك الإنسان الذي لا يملك الكثير من العلم والفصاحة والبلاغة، يجذب إليه الناس بعد أن أسر القلوب قبل الآذان، فكيف إذا كان هذا من أصحاب العلم. فكسب القلوب فن يجب أن يتعلمه ويمارسه من سلك طريق الدعوة، حتى يسهل عليه التبليغ الذي أمر به من ربه. ومن أهم طرق كسب القلوب:

١ ـ استدامة الابتسامة في كل وقت.

٢ ـ قضاء حاجات الآخرين، بل المبادرة في السؤال عنها وقضائها.

٣ ـ الترحيب الدائم، والمناداة بالاسم والكنية، أو بأحب ما ينادى به.

٤ ـ تفقد الغائب، وعيادة المريض، والزيارة في الله.

٥ ـ السؤال عن الأحوال، وإظهار الشوق بسبب الغياب.

٦ ـ التواضع أثناء قضاء الحاجة، وعدم إظهار التفضل عليه.

٧ ـ الرد الحسن والاعتذار بأدب عند عدم القدرة على المساعدة.

٨ ـ مراعاة الشعور عند الحديث أو المزاح أو المناقشة.

٩ ـ الاتزان في الشخصية، وعدم التقلب والمقصود ألا يكون ساعة غاضباً وساعة هادئاً، وساعة ساخطاً متبرماً، وساعة راضياً غافراً وهكذا.

١٠ ـ العدالة في التعامل الأخلاقي مع الآخرين وعدم التفريق بسبب الجنس أو المال أو المنصب.

١١ ـ احترام الآراء مهما تكن وعدم تسفيهها إلا أن تكون معارضة لنصوص الشرع.

١٢ ـ الإنصات فيما يتكلمون، وعدم المقاطعة، حتى وإن لم يعجبك الكلام.

١٣ ـ إبداء الحب، والتودد الدائم، كأن تقول عند الالتقاء أهلاً بالأخ الحبيب، أو يا من أحبه في الله، أو أهلاً بعزيز القلب. وهكذا.

١٤ ـ الإهداء.

١٥ ـ التماس الأعذار، وحسن الظن.

١٦ - العفو والتغافر عند الخطأ، وذلك بتحمل الأخطاء والمبادرة بالعفو.

صوت الشيطان

هو صوت غير مسموع بالأذن، وليس لذلك الصوت ذبذبات وتردد ينتقل عبر الفراغ أو الأسلاك ليصل إلى أذن الإنسان، بل هو صوت يتم داخل جسم الإنسان في صدره ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[1] ويتم سماعه داخل جسم الإنسان أيضاً عبر قناتين: العقل والقلب.

وهذا إحساس نفسي نحو كل ما فيه إغضاب للرب، أو تنقيص للأجر والمثوبة، ويؤدي الشيطان هذا الدور عن طريق اختيار ما تميل إليه النفس البشرية، أو عن طريق الأدلة الشرعية المفضولة، ومثاله ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد**... الحديث»[2].

فالنائم، وخاصة المتأخر في نومه، والذي لم يأخذ نصيبه من الراحة، يدخل عليه من هذا المدخل ليغريه بما تحب نفسه «**عليك ليل طويل**» أي أنه يوهمه ويلقي في حسه أنه ما زال في الوقت متسع لكي ينام بعض الدقائق الزائدة فيغريه بالنوم، فإذا

---

(١) سورة الناس، الآية: ٥.

(٢) مختصر مسلم ٣٨٧ وله تكملة.

ما أضاع تلك الدقائق التي نام فيها فإما يستيقظ في وقت الصلاة تماماً، وهو بذلك يضيع عليه فرصة قيام الليل أو الوتر في الثلث الأخير من الليل، أو أنه يمد في نومته فلا يستيقظ إلا بعد طلوع الفجر فيفوته صلاة الجماعة، أو أنه يزيد في تلك الدقائق حتى تكون ساعات، فتشرق الشمس ويضيع عليه صلاة الفجر في وقتها.

وغيرها من المداخل والإحساسات الشيطانية. وأنا أكتب هذه الكلمات، أسمعه يقول لي: «قم فنم وراءك دراسة، ولم تنم في الليل كثيراً، وأكمل هذا المقال في وقت آخر» حتى يمنعني من هذا الاسترسال الذي لا يمنح من الرب دائماً، وهذا الرزق الذي يقسم في هذه اللحظات الخيِّرة من مطلع يوم جديد.

وشدة السماع تعتمد على مقدار الإيمان المكتسب بسبب إخلاص النيات، وأداء الواجبات، والتقرب بالنوافل في الخلوات. مع رحمة الله وتوفيقه للعبد، حتى لكأن تلك الأصوات تنقلب إلى صوت حقيقي يسمعه بوضوح ذلك المؤمن، ويستطيع أن يميزه بين أحاسيس الخير وغيرها من باقي الأحاسيس. إن هذا الصوت الشيطاني إنما يُسمع عن طريقين كما ذكرنا: القلب والعقل، فمن نقى هذين الطريقين، وأزال كل العوائق فيهما، وهي المعاصي الصغائر منها والكبائر والكسل ودنو الهمة، فإن الصوت الشيطاني ينساب دونما عوائق ليسمعه في هذين الطريقين فيميزه المؤمن ويعرف مصدر الصوت، فيتجنب ما فيه من ترغيب وترهيب وأمر، فيدله قلبه بسبب ما

يحمل من إيمان ويجعله يحس بأن ذلك الإحساس لا يتطابق مع إحساسه الإيماني فيرفضه القلب، ثم يدله عقله بأن ذلك الإحساس الشيطاني يعطل الخير الذي ينويه، أو ما كان واجباً عليه، أو أنه يعرضه لغضب المولى، ويدله عقله على أن ما سيكسبه بامتثاله لهذا الصوت الشيطاني، لا يعادل ما سيخسره، بفواته ذلك العمل الصالح، فيقلع حالاً عن الاستماع ويمضي لفعل الخير.

أما غيره ممن لم يبعد تلك المعاصي والعوائق، فإن الصوت الشيطاني عندما يأتي يرى تلك العوائق فلا يصل بوضوح إلى قلبه وعقله. أو يصل مخلوطاً بالحجج الإيمانية فيحسب أن ذلك شعوراً إيمانياً، وبالتالي لا يستطيع التمييز بين الإحساس الإيماني والشيطاني، فيمضي لما يلقيه الشيطان في نفسه، «أو أن العوائق تزداد فتسد تماماً طريق القلب والعقل، فما يعود يشعر بشيء البتة من صوت الشيطان عن طريق قلبه وعقله، بل إنه يستقبل صوته كاملاً عن طريق نفسه، فيعتقد أن ذلك من قرارة نفسه التي تدعوه للخير والشيطان يستغلها هنا لكي تأمر صاحبها بالشر دون أن يعلم ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.

وما أجمل ما قال الرافعي في صفة صوت الشيطان: «وما أتى الشيطان أحداً، ولا وسوس في قلب، ولا سوّل لنفس، ولا أغوى من يغويه إلا بأسلوب شعري ملتبس دقيق، يجعل المرء يعتقد أن اطراح العقل ساعة هو عقل الساعة، ويفسد برهانه مهما كان قوياً؛ إذ يرتد به، له من النفس إلى أخيلة لا تقبل البرهانات، ويقطع حجته مهما كانت دامغة؛ إذ يعترضها بنزعة

من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق»[1].

الطبيعة المسمارية

خطرت عليّ هذه الخاطرة عندما قرأت للأستاذ الرافعي رحمه الله، وهو يصف العالم الحق بالمسمار. إذ يقول: «إن العالم الحق كالمسمار.. إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة»[2].

طبيعة الداعية إلى الله العالم بمهمته في هذه الحياة يجب أن يكون صاحب طبيعة مسمارية ينشب في كل خشبة مهيأة لذلك، وألا يعجب ببريقه ولمعانه ويغفل عن العمل الذي أُعد له، وإلا فإن الصدأ له بالمرصاد يعقبه الاهتراء، ولكن نشوبه داخل الأخشاب يصون لمعانه وقوته، وهو متغلغل داخلها، يحفظها ويثبت بعضها ببعض، فهو يمدها بالثبات، ويستمد منها الثبات، هذا هو الداعية الذي يعرف هدف خلقه، وأسباب ثباته.

الحساسية

هو ليس ذلك المرض المنتشر في الخليج العربي خاصة، بسبب حرارة الجو، والذي سمي بذلك بسبب دقة تأثر الجلد للتقلبات الجوية أو حبوب اللقاح المتطايرة، أو بعض روائح

---

(١) وحي القلم ٢٥٧/١.

(٢) وحي القلم ٥٦/٣.

الحيوانات، وغيرها من المسببات للطفح الجلدي الذي يبدو على جلد المصاب. وإنما يتعلق بالمشاعر والأحاسيس، وعلى هذا فإن الحساسية تنقسم إلى قسمين: محمودة ومذمومة، فالمحمود منها: هو ذلك الشعور الرقيق والتأثر الإيجابي عند سماع أو رؤية ما يذكره بالآخرة، فترى قشعريرة الجلود، وترى الدموع تنساب من غير إرادة من مقلتي ذلك الحساس، وتراه يحس بإحساس مرهف بكل ما يصيب المسلمين من بلاء، ويتأثر تأثراً عظيماً لذلك، وربما امتنع عن الطعام عندما يرى الجياع من المسلمين، أو تغيب عن وجهه الابتسامة والفرح لأيام عندما يحضر جنازة أو احتضار. هكذا هو حساس لكل ما له علاقة بالآخرة.

أما الحساسية المذمومة: فهو أن يكون لصاحبها شعور مبالغ لكل ما تسقط عيناه عليه أو تسمعه أذنه فيأوله تأويلاً سيئاً ضده، ويقدم سوء الظن على حسنه في المتكلم معه، ويظن أن كل ما يقال إنما يعنيه، فيتغير ويغضب على المتحدث، دون أن يعلم المتحدث سبب زعله، وهذا النوع من الناس، من أصعب الأصناف التي يتعامل معها الداعية، وباقي الناس، لأنهم يحسبون ألف حساب قبل الحديث معه، وتعتبر نصيحته من المستحيلات، التقيت مع كثيرين من هؤلاء في أماكن مختلفة، كنت كلما ألقيت خاطرة أو خطبة جاؤوا إليّ وقالوا: إنما كنت تعنينا. وهذا الصنف لا يصلح العمل معهم حتى يزيلوا تلك الحساسية المذمومة.

أحبك في الله

أول ما سمعت هذه الكلمة قبل سبعة عشر عاماً تعجبت عند سماعها، ودخلت أذني ولم تخرج من قلبي منذ تلك اللحظة. إنها كلمة لها رنين خاص يختلف عن كلمات المجاملة الكثيرة التي نسمعها من حين إلى آخر، إنها كلمة تنبع من القلب، وسببها ليس عرضاً من أعراض الدنيا، بل قربة إلى الله، إنه حب الله ورسوله ﷺ الذي جعل قائلها يتلفظ بها لمن يرى أنه يمارس ويتقرب إلى الله ورسوله، ويراه أصبح جزءاً منه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فيحن الجزء إلى الجزء في الجسد الواحد فتخرج هذه الكلمة معبرة عما يختلج في هذا القلب المتصل بالله «أحبك في الله».

الدعاء والواقع

عندما يطلب إنسان من آخر كأس ماء وعندما يعطي الماء يرفضه ممن أعطاه الماء، ماذا يسمى ذلك الإنسان؟ وعندما يكرر نفس هذا الإنسان طلب الماء من ذلك الشخص مرات ومرات وكلما أعطاه الماء رفضه.. هل يسمى مجنوناً، مختلاً، كاذباً، لعوباً؟؟

من الممكن أن يطلق عليه أي نعت من هذه النعوت أو ما شابهها.. ملايين المسلمين في أنحاء العالم يصلون وجميع هؤلاء يقرؤون الفاتحة، والتي تعتبر ركناً لا تصح الصلاة من غيرها، ويقرؤونها في اليوم الواحد سبع عشرة مرة، هذا عدا السنن الراتبة

والتي تزيد من عدد قراءتها، ومعنى هذا أنهم يكررون الدعاء في كل قراءة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1]. والواقع لمعظم هؤلاء يقول غير ذلك.. إن الألسنة تقول يا رب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لك نذل وإياك نطيع ونتبع ونستسلم، ونخضع ولا نخاف إلا منك، ولا نرجو سواك، ولا نخضع لقانون سوى قانونك، ولا نخشى سواك من العبيد. ولكن واقعهم يقول غير ذلك، إنهم يذلون للبشر، ويصفقون للذين يضعون مناهج بشرية تحكم بغير منهج الله، إنهم يرتعشون عندما يهددهم البشر بقطع الرزق أو قطع الأنفس، إنهم يتخذون غير الله آلهة يخضعون لها ويذلون لها ويخافون منها، وينقادون لها، ويستسلمون، إن أهواءهم وقادتهم وشهواتهم، ونساءهم، وأموالهم، وثيابهم، ومراكبهم، ودوابهم، ومناصبهم، وكل زينة من زينة الأرض آلهة من دون الله، ومع ذلك يقولون أكثر من سبع عشرة مرة في اليوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ويقولون: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: إننا يا رب إذا وقعت المصيبة والبلاء والحاجة والضعف لا نتجه لأحد سواك للنصرة وللخلاص من تلك البلية، ولكن الواقع يقول غير ذلك إنهم إذا أصابهم البلاء أو الضائقة اتجهوا للمخلوق قبل الخالق، واعتقدوا أن للمخلوق قدرة النفع أو الضرّ، ويهملون تماماً الاتجاه والالتجاء والارتماء بين يدي الله إنهم يقولون: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[2] أي: ذلك الطريق الذي سار عليه السلف

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

الصالح من أتباع الأنبياء والصحابة ومن تبعهم إلى يوم الدين. وواقعهم يقول غير ذلك، إنهم ما زالوا يصرون على معاصيهم على الربا والزنا، والنظر إلى ما حرّم الله، والكذب والغيبة والنميمة، والخداع، والحقد الذي يملأ قلوبهم ودنو الهمة، وعبادة الدنيا، والضيق من الالتزام فأي هداية يريدون؟؟

هل يعني هذا أن هؤلاء الملايين من المسلمين في أنحاء العالم يكذبون بين يدي الله ويخدعونه سبع عشرة مرة في اليوم، وشأنهم شأن ذلك المخبول الذي يطلب الماء من صاحبه حتى إذا أعطاه رفضه. أهي العادة التي غلبت حتى نزعت العلاقة بين القول والفعل وكان هذا الفصام المنكر أم أنه الاستمراء للكذب الذي غطى حياتنا فأصبحنا لا نفرق بين الكذب على الناس، وبين يدي الله، أم هي المادية التي غشت القلوب فأصبحت كالران الذي أعمى بصيرة الإنسان عن الرؤية الحقيقية وتفحص ما يقول وما يفعل، أم أنها المعاصي التي أعمت القلوب؟ أم أنها جميعاً مجتمعة؟ وهذه إن صحت لكانت الطامة التي وقعت فيها هذه الأمة.

يقول تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

طبقات التأثر

الناس في هدايتهم ينقسمون إلى أربعة أقسام:

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

القسم الأول: هم من نشأوا بين والدين صالحين مثقفين واعين لواقع أمتهم، والسبيل إلى الخلاص من هذا الواقع الأليم. فنشأوا صالحين أتقياء واعين مثقفين، ولم يمروا في حياتهم بجاهلية.

القسم الثاني: هم من نشأوا بين والدين صالحين ولكنهما أمّيّان ليس لهمَا حظ من الثقافة والوعي، فنشأوا صالحين أتقياء ولكن من غير وعي وثقافة، ولم يمروا بجاهلية، ولكن ربما تعرضوا للكثير من الأخطاء في السلوك والمعاملة دون العلم بخطئها.

القسم الثالث: هم من هداهم الله بعد أن مروا بالكثير من المعاصي، ولبثوا في ذلك عمراً، ثم حدثت لهم التوبة والاستقامة.

القسم الرابع: هم من الصنف الأول أو الثاني، فيزلون لسبب أو آخر فيقعون في معصية يتوبون على إثرها ويستقيمون.

والنسبة العظمى ممن يبكون عند ذكر الآخرة، وصور العذاب فيها، وصور عقاب الله لمن عصى من الأمم التي سبقت هم من الصنف الثالث والرابع.

أما الصنف الأول: فإذا لم يُربَّ على رؤية الظلم والظالمين، ويرى المعاصي وآثارها على مقترفيها، ولم يربَّ على الإحساس بشدة عذاب الله في حياة البرزخ والآخرة، فإنه يبقى في تبلُّد حسي، لا يتأثر أبداً لأنه عندما يسمع آيات العذاب لا يجد في حياته ما يتذكره ليندم أو ليخاف، ما لم يربَّ على

الخوف من الجليل في غير ذلك، وهذا فن لا يتقنه إلا القليل من المربين.

أما الصنف الثاني: فربما تأثر عندما يقارن حال الجهالة وانعدام الثقافة وحاله بعد الالتزام واكتساب الوعي وإن كان هو الآخر بحاجة إلى تربية خاصة لإنارة عنصر التأثر قبل أن يموت فيه الإحساس.

ألفة المنكر

الألفة طبيعة بشرية تأتي بسبب تكرر رؤية الشيء أو سماعه، يكون في البداية غريباً يعجب له، ويطيل النظر والتمعن أو الإنصات له، فإذا ما تكرر اعتاد عليه، ولم يعد يثير فيه التعجب والتفكر والتأمل.

ولكن الخطير في هذه الطبيعة أن تألف النفس المعصية سواءاً التي تقترفها هي، أو يقترفها غيرها من الناس. بسبب تكرارها. ومثالاً على ذلك لو وقع نظره على امرأة متبرجة وتذكَّر أن هذا الأمر لا يجوز فصرف النظر عنها، وفي المرة الثانية تكرَّر النظر وزيَّنه الشيطان له، ومع تكرر النظر يألف هذه المعصية وما يعود يحس بوخز الضمير، أو ألم الذنب لأنه تعوَّد عليه لكثرة تكراره، فيموت عنده الإحساس بالذنب. وإذا ما استمر الإنسان في ألفة المنكر، ينقلب عنده معروفاً، ويصبح المعروف منكراً يستغرب منه، وهذه المرحلة تسمى «مرحلة انتكاس الفطرة» فما يعود يرى الأشياء فيها كما خلقها الله بل

يراها مقلوبة لانتكاس فطرته.

وقد ذكر الله لهذه الحالة في القرآن الكريم ثلاث صور:

الصورة الأولى: في سورة البقرة قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

فأصحاب الحق ينهونهم عن فعل الفساد، وهم بسبب انتكاس فطرتهم وألفتهم للمنكر، وانعدام الشعور تماماً بالمنكر ظنوا أنهم لا يقومون بأي شيء من الفساد، بل أكثر من ذلك إنهم يظنون أنهم تخطوا مرحلة الصلاح إلى مرحلة الإصلاح، فما يقومون به ليس فساداً بل إصلاحاً.

الصورة الثانية: في سورة الكهف قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

فهؤلاء قد ضلّ سعيهم وعملهم في الدنيا، وحادوا عن الطريق ولكنهم يعتقدون أن ما يقومون به من الأمور الحسنة، وأيضاً هذا بسبب ألفتهم للمنكر، حتى وصولهم إلى درجة الانتكاس وانعدام الشعور بالمنكر.

الصورة الثالثة: في سورة فاطر قوله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١، ١٢.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1].

فهذا يعمل المعاصي ولكن الشيطان يزين له سوء عمله ويضع له من الحجج والبراهين والأدلة التي يرى من خلالها أن ما يقوم به هو الحق والصواب بسبب انتكاس فطرته، وكل هؤلاء ألفوا المنكر لتواليه وتكراره، فانعدم الإحساس عندهم، كما هو مبيَّن بحديث النبي ﷺ: «**تُعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً**... الحديث»[2].

المزاجية

هي مرض سلوكي يصيب الكثير من الناس، وهي بعبارة أوجز التقلب وعدم الثبات في الآراء والمواقف والقرارات والأعمال، وحتى في الواجبات، ويقل هذا السلوك عند الملتزمين، ذلك لأن الالتزام بالدين معناه تفويض الرب سبحانه وتعالى في كل أمر من الأمور، مما ينتج عنه الامتثال والاستسلام الكامل لكل ما أمر والابتعاد عن كل ما نهى، لذلك فهو يسلم شؤونه لخالقه بما أمره. وبما نهاه، ولكن الشخص المزاجي يترك لهواه حق التصرف في شؤونه كلها، فإذا كان هواه يميل للشيء الفلاني قبله وعمل به واختاره، وإذا لم يمل هواه لذلك الشيء رفضه وابتعد عنه حتى وإن كان ذلك الشيء من الواجبات التي أمر بها في الشرع، فهو يتقلب بتقلب هواه أو

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) رواه مسلم ـ المختصر ١٩٩٠.

راحته النفسية فلا يثبت على أمر واحد. والشخص المزاجي من الصعب الاعتماد عليه، أو إسناد أي أمر من الأمور له. وأخطر ما يكون في مركز التوجيه والقيادة، لأنه سيقود من تحته بهواه وليس بتقوى الله واستخدام عقله.

الغيرة بين الدعاة

تعريف الغيرة: هي شعور المحب أو المحبوب بأن طرفاً ثالثاً يشاركه في الحب، لأنه يريده لوحده فقط ولا يريد مشاركة أحد فيه. وعلى هذا فالغيرة تنقسم إلى قسمين رئيسين:

١ ـ غيرة الله.

٢ ـ غيرة المخلوق، وخاصة البشر.

فالله سبحانه وتعالى، يغضب إذا رأى عبده يعبد غيره وهو الذي خلقه وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ثم يعطى بعد ذلك ولاءه ومحبته وطاعته لغير خالقه.

وغيرة البشر تتفرع منها أنواع كثيرة:

منها غيرة الزوج على زوجته أو العكس.

ومنها غيرة الطفل من أخيه الصغير عندما يرى اهتماماً زائداً لأخيه الصغير، فيغضب لفقده الحب الذي لم يكن يشاركه فيه أحد.

ومنها غيرة الموظف المثالي من مديره عندما يراه يهتم بغيره، وفي عالم الدعاة يوجد نوعان من الغيرة:

الأول: هو الغيرة على الدين وهي غيرة مستمدَّة من غيرة الله تدفعهم للدفاع عن هذا الدين، ودعوة الآخرين له وإنكار المنكر، وحتى لو أدى ذلك إلى تقديم أرواحهم رخيصة في سبيل محبوبهم الأعظم وهو الله ودينه الذي أنزل، وهذه بلا شك أشرف وأرقى أنواع الغيرة بعد غيرة الله لأنها من أجله.

ولكن هناك لوناً آخر من الغيرة تحدث أحياناً بين الدعاة، وخاصة الجدد منهم، وهي غيرتهم عندما يرى أحدهم الشيخ أو المربي مدح غيره، أو كلَّف غيره بإلقاء درس، أو أي مهمة أخرى، والمذموم في ذلك أنه ينافي كمال الإخلاص الذي يريده الله خاصة لمن يعملون في سبيله.

ذلك لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان صواباً خالصاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1].

والداعية الذي وضع قدمه في هذا الطريق، يفترض فيه أنه لا يبغي وجهاً سوى وجه الله تعالى، ولا ينتظر إعجاب الناس ومديحهم لعمله، لأن الذي يهمه هو خالقه، لذلك لا يضيره أن يُمدح غيره، بل بالعكس فإنه يفرح إذا مُدح أخاه، ويدعو له بالزيادة والخير.

ولا يهمه في أي مكان يوجد ما دام يعمل في سبيل الله.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

فالغيرة بهذا المفهوم يجب ألا تكون بين صفوف الدعاة أبداً لأنها مدخل كبير من مداخل الشيطان يفسد به عمل الدعاة.

الموسمية

هي صفة تطلق على فئة من الناس لا يقومون بالأعمال الصالحة إلا في مواسمها، وما عدا ذلك فليس لهم صلة بالعمل الصالح أو الواجبات.

فمنهم من يترك الصلاة ما عدا يوم الجمعة.

ومنهم من يترك الصلاة وقراءة القرآن، والصلاة في المسجد ولا يقوم بشيء من ذلك إلا في رمضان، فتراه دائم التواجد في المساجد، عاكفاً على قراءة القرآن، حاضراً لصلاة التراويح. فإذا ما انقضى الشهر رجع كما كان تماماً دون صلاة في المساجد، أو قراءة قرآن أو غيره من أمور الطاعات، وصنف أعجب من هذا الصنف لم يره النبي ﷺ وما أظن قرناً ظهر فيه مثل هذا الصنف إلا هذا القرن، وهم الذين يصومون في رمضان دون صلاة، وصنف أعجب من هذا وهن تلك النساء اللواتي يقمن بأصعب عبادة في رمضان وهي إحياء العشر الأواخر من رمضان، والصبر على طول القيام، فإذا انتهى رمضان، أو حتى رجعت إلى بيتها خلعت الحجاب، ورجعت كما كانت متبرجة.

ومنهم بعض الطلَبة الذين لا يصلُّون، ولا يحضرون المساجد إلا إذا اقترب موعد الامتحانات النهائية.

ومنهم من يطلق لحيته، ويلازم الشباب الصالح ويواظب

على الصلوات إذا ذهب إلى الحج، حتى إذا ما رجع من الحج عاد كما كان حليقاً، مطلّقاً المساجد، وهاجراً حلقات العلم، والشباب الصالح. ويرجع إلى سهراته وتضييعه للأوقات ومعاصيه.

ومنهم من إذا مات له قريب، رجع إلى الصلاة والصلاح فترة، ثم يعود إلى سابق ما كان عليه وهكذا تتعدد صور الموسميين، وهو بلا شك من الإحداث في هذا الدين، والذي ذكره ﷺ حينما يلتقي بفئة من الناس عند الحوض يريدون الشرب فتمنعهم الملائكة فيقول النبي ﷺ: **«أي رب، أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**[١]، وفي رواية: **«فأقول: سحقاً لمن بدّل بعدي»**[٢].

والسبب الذي يجعلهم يلتزمون هذه الموسمية هو شدة النزاع والصراع في نفوسهم بين جانب الخير وجانب الشر، أو أن الشيطان يخدعهم بأن ما يقومون به في هذه المواسم من الخير يخفف عنهم الكثير من عقاب الله لأنكم لم تقطعوه، وغيرها من الخدع.

الحب

من أعظم الكلمات التي يستخدمها الإنسان وأخطرها، كما أنها كلمة مقدّسة أخطأ الكثير استخدامها وفهمها، بسبب الإعلام العربي الذليل، والذي اقتبس معظم ما يعرضه من الغرب، الذي

---

(١)(٢) رواهما الشيخان.

أخطأ فهم واستعمال هذه الكلمة العظيمة.

إن الغرب عندما يطلق هذه الكلمة فهو يربطها في غالب الأحيان بالعلاقة الآثمة التي تسبق الزواج، أو التي لا تنتهي بالزواج، أو بالعلاقة بين الرجل والمرأة من غير رباط شرعي، وأن كلمة «ممارسة الحب» عندهم تعني الفاحشة أو الزنى بالنسبة لغير المتزوجيَن، أو تعني الجماع ومقدماته بالنسبة للمتزوجين، والغربي يستنكر أشد الاستنكار أن تقول له أحبك (I Love You) لأنه لا يتوقع أن يسمع هذه الكلمة إلا من عشيقته أو زوجته فقط.

هكذا يربطون هذه الكلمة العظيمة وممارستها بالشهوة والرغبة بقضاء الوطر. حتى أصبحت هذه الكلمة مستنكَرة عند الأسوياء من الناس، لما ربط بها من صور الفحش والخلاعة والفساد عن طريق الإعلام الذي قذف في المجتمع عشرات الآلاف من المسلسلات والأفلام، والأغاني والمسرحيات التي ركزت على المفهوم الغربي للحب.

إن الحب عندنا أسمى من ذلك كثيراً، إن الحب هو الذي يُدخل الناس الجنة أو يُدخلهم النار، فمن أرقى أنواع الحب حب الله تعالى، وحبه أصل من أصول الإيمان فلا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً من غير حبه، ويشرك من أشرك في حبه أحداً سواه.

ويتفرع من حب الله أسمى أنواع الحب التي عرفها البشر:

١ ـ **حب الوالدين**: لأن الله أمر به وقرنه بعبادته، وهذا

الحب مرتبط أيضاً بالله تعالى حيث أن هذا الحب يتوقف عندما يحيد الوالدان عن طريق الله، ويسلكان طريق الشيطان، وذلك أصل الولاء والبراء، بقوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[1].

٢ ـ **حب الوالدين لأبنائهما:** وكذلك هذا الحب يرتبط بالله تعالى، ومن علامات الإيمان أن يتوقف هذا الحب إذا ضلّ الأبناء طريق الحق. كما فهَّمَ الله تعالى هذه القاعدة، قاعدة الولاء والبراء لرسوله نوح عندما تحركت عاطفة الأبوة وهو يرى ولده الكافر يغرق فصاح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ فأرجعه حالاً للأصل:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[2].

٣ ـ **حب الزوجة:** وهذا الحب يتضاعف عندما تكون قاعدته مبنية على حب الله، فيزداد هذا الحب كلما زادت الزوجة قربة إلى الله تعالى، وتكون من أجمل متاع الدنيا كما أخبر الصادق المصدوق: «**الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[3].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٣) مسلم ـ المختصر ٧٩٧.

٤ - **الحب في الله**: بين أوليائه الصالحين من غير نسب بينهم سوى نسب العقيدة، فإذا ما أحس أحدهم بهذا الحب لم يرَ مضاضة بأن يخبر أخاه «أحبك في الله» ويتقبل أخاه هذه الهدية العظيمة ويرد عليه بقوله: «أحبك الله الذي أحببتني من أجله» فهو يعلم أنه لم يحبه بسبب غرض من أغراض الدنيا لذلك يدعو له أن يحبه الله تعالى.

حجب المعاصي

إن هذا الدين وحي من الله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فلا يمكن أن يعيه أحد من خلقه إلا من فرغ قلبه من كل ما سواه، ومن طبيعة هذا الوحي أنه لا يمكن أن يستقر في قلب يزاحمه شيء ليس من جنسه. هذه الحقيقة على بداهتها غابت عني مدة طويلة عندما كنت ألاحظ ظاهرة تكررت في أكثر من مكان ولأكثر من واحد، وما كنت أعرف سبب تلك الظاهرة، وكنت أحار في إيجاد إجابة لذلك.

هذه الظاهرة هي أن الكثيرين من الأذكياء والمتفوقين الذين التقيت بهم في الكثير من البلاد، يصعب عليهم فهم أبسط الأمور وأسهلها في هذا الدين، ويستمرون في تكرار التساؤل تلو التساؤل لصعوبة فهم ما سمعوه من هذا الوحي، وتكون أسئلتهم في غالب الأحيان، أقل ما توصف بأنها أسئلة غبية، لو تفكَّروا فيها قليلاً لضحكوا على أنفسهم، بينما هم أنفسهم من جانب آخر لا يستعصي عليهم الصعب من العلم الدنيوي، والبعض

منهم لا يفتح الكتاب، ويعتمد على شرح المعلم، ويأخذ بالامتحان الدرجات النهائية.

حيرني هذا الأمر كثيراً، حتى رجعت إلى تلك البديهية وعلمت أن هؤلاء مع ذكائهم في الأمور الحياتية، والعلوم الدنيوية، إلا أنهم لم يتخلوا عن المعاصي، أو لأنهم رضوا بحياة التخليط، لهذا السبب لا ينفذ الوحي ولا يجد سبيلاً إلى قلوبهم، إنها حجب المعاصي، التي حذّر بها الإمام وكيع تلميذه الشافعي عندما اشتكى الآخر سوءاً بحفظه فقال:

«شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يُهدى لعاصي»

بل أكثر من ذلك، فإن تأثير كلام الوحي في الآخرين لا يمكن أن يتم على لسان من يقترف المعاصي، بينما تكون نفس الكلمات التي يستخدمها ذلك العاصي، يستخدمها متقرب ورع لتفعل أثرها العظيم في نفوس الآخرين. فسبحان من جعل في كلامه هذه الطبيعة.

تجميل المنزل

عندما يسكن الإنسان في المنزل الجديد يفرشه بالسجاد، ثم يضع ما يستطيع من الأثاث الجيد، ثم يجمل تلك الحوائط بالآيات القرآنية أو المناظر الطبيعية، ويدهن الحوائط بالأصباغ

الجميلة التي تتناسب مع لون السجاد، يزرع الزروع الجميلة والأشجار المثمرة في المساحات الخالية، ويزيد هذا الاهتمام بالتأثيث كلما شعر بملكية هذا المنزل أو طول الإقامة التي سيقيم فيها بذلك المنزل. ومهما طالت فترة الإقامة فإنها لن تكون أطول من تلك التي سيقيمها في مثواه الأخير تلك التي تسمى «الرقدة الكبرى» والفطن هو الذي يسعى لتجميل المنزل الذي سيرقد فيه تلك الرقدة بأجمل ما يستطيع من أدوات التجميل، لا أن يصنع لقبره غرفة خاصة مسلحة، يضع على جدرانها من الزخارف والديكور، وعلى جوانبها أشهر المأكولات، ويغطي تلك الغرفة بأجود أنواع الأحجار والرخام كما كانت تفعل الفراعنة من قبل ومن يفعلون فعلهم هذه الأيام. بل يجمل ذلك المنزل بكثرة الصلاة ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] الفروض والنوافل، والصيام والصدقات، والأذكار، وقراءة القرآن، والأخلاق الحميدة كالصبر والصدق والتقوى واليقين والخوف والرجاء، والتوكل وغيرها وأن يسور هذه الأخلاق جميعاً بسور الإخلاص. هذا هو التجميل المطلوب لذلك المنزل ليعيش بسعادة دائمة فيه حتى يوم القيامة فإذا جاء ما ينغص عليه تلك السعادة من العذاب وقفت في وجهه تلك الأعمال تدافع عن صاحبها وتمنع رياح العذاب من اختراق ذلك الجدار الصلب كما صح في الحديث عن المؤمن حين يوضع في القبر: «**فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه**

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل»[1].

بداية التغير

قلب طاهر: بينما كان الصحابة جلوساً عند النبي ﷺ قال: **«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال»** فعندما غادر النبي ﷺ تبعه ابن عمر ليعلم العمل الذي سبَّب له دخول الجنة، ثم دخل بيته وسأله عن عمله بعد أن راقبه فما رآه يزيد على ما يزيدون فردَّ عليه الأنصاري: ما هو إلا ما رأيت غير إني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك[2].

محل التقوى: والتقوى محلها القلب كما أخبر النبي ﷺ في حديث الترمذي بإسناد صحيح **«التقوى هاهنا»** وأشار إلى القلب.

فالتقوى ليست حركات تُفعل أو كلام يُقال، بل إن موضعها هو القلب، لذلك قال الرسول ﷺ: **«إن الله لا ينظر**

---

(١) الطبراني في الأوسط (مجمع الزوائد ٣/ ٥١) وحسنه الهيثمي.

(٢) رواه أحمد ـ وقال المنذري على شرط البخاري ومسلم (الترغيب ٥٤٩/٣) وقال الهيثمي ـ إسناده حسن.

إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]. فالقضية إذن ليست قضية مظاهر خارجية من لحية أو مسباح أو تقصير ثياب أو عمامة أو طيب وسواك بل هي تنقية لذلك القلب وإعماره بالإيمان الصادق.

صلاح المضغة: والقلب هو تلك المضغة في جسم الإنسان التي إذا ما صلحت صلح سائر الجسد وإذا ما فسدت فسد سائر الجسد كما أخبرنا ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله»**[2].

ومن هذا كله يتبين لنا أن أهم جزء في هذا الإنسان على الإطلاق هو ذلك القلب، ومن غير عملية تغيير وتنقية لهذا الجزء من الإنسان لن يحدث أي تغيير يُذكر، لأنه هو موضع التغيير، الذي يتبعه سائر التغيير الذي نريد.

وأولئك الذين يريدون تغيراً سحرياً من غير بذل الجهد في تغيير قلوبهم متوهمون، ولن يحصلوا على شيء من التغيير ما لم يبدأوا هم بالتغيير، ذلك لأن سنّة الله مضت بذلك.

بداية التغيير: وعملية التغيير تبدأ حينما يبدأ الإنسان هو عملية التغيير إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[3].

---

(١) رواه مسلم ـ المختصر ١٧٧٦.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١١.

إن عقد النية بتغيير القلب هي المدخل الطبيعي للخطوة الأولى نحو تغيير النفس وهي التوبة الصادقة بعد تمحيص العيوب والنواقص.

المصارحة بين الإخوة

المصارحة من أنجح العلاجات عندما يدب الخلاف أو تغير القلوب، أو يصيب الإخوة شيئاً من التوتر. وهذا التوتر والتغير إنما يحدث لأسباب كثيرة منها:

١ ـ سوء الظن بما يقال أو يفعل.

٢ ـ عدم التثبت عن الاستماع أو الظن.

٣ ـ عدم التماس الأعذار.

٤ ـ قلة الثقة.

٥ ـ تحميل الكلام أكثر مما يحتمل.

٦ ـ التسرع باتخاذ القرار.

٧ ـ سرعة الانفعال والغضب.

٨ ـ الجهل بظروف الطرف الآخر.

هذه بعض أهم أسباب ضعف الإخاء أو التبدل والتوتر في العلاقات الأخوية، يستغلها الشيطان ليزيد من التفرق والبغضاء بين المتحابين في الله ليضعف جماعتهم وجمعتهم بنصرة الحق بعد أن تتزعزع الثقة، ويدب الخلاف فتأتي المصارحة كعلاج

رئيسي في هذه القضية، والشيطان يزين لكلا الطرفين بالابتعاد عن هذا الحل، بحجة عدم التنازل والذل، ولكن الداعية الفطن المتعلق بالحق، والذي لا يريد بأعماله سوى وجه الله لا يأبه بما يلقي الشيطان في قلبه، ويمضي في كل طريق يرضي الله تعالى ويجمع القلوب، ويوحّد الصفوف، حتى وإن كان هذا الأمر على حساب سمعته أو ظروف حياته. وللمصارحة آداب منها:

١ ـ أن يكون الدافع منها هو رضى الله تعالى وتوحيد الصف.

٢ ـ أن يكون الصدق هو رائدها، وإلا فإنها لا تؤدي أغراضها.

٣ ـ يجب أن يسودها الوضوح في كل عبارة وكلمة، بما لا يحتمل تفسيراً آخر.

٤ ـ ألا يوجد طرف آخر بين المتصارحين، أصحاب القضية، وكلما قلَّ العدد كان أفضل وأقرب إلى المودة والوصول إلى الهدف.

٥ ـ أن يكون ذلك في بيت أحد الأطراف.

٦ ـ أن يبدأ أحد الأطراف بالتحدث عن كل ما يراه، دون إخفاء شيء في نفسه.

٧ ـ أن يدون الطرف الآخر النقاط التي يثيرها أخوه ليسهل الرد عليها أو تفسيرها.

٨ ـ عندما يبدأ الطرف الآخر بالحديث، وتوضيح اللبس، يجب أن يكون هادئاً غير متحامل، ويكون عادلاً في التوضيح والرد فمثلاً يقول: النقطة الأولى كانت غير واضحة عندي وأنت معك الحق فيها. أما الثانية فإنك إنما ظننت ذلك لأنه قد فاتك أن تعلم أن في الأمر كذا وكذا، وأما النقطة الثالثة فأنا مدرك أنها خطأ مني من البداية... وهكذا.

٩ ـ وأن يستعمل المحدث أثناء كلامه الكلمات التي تهدىء الجو، وتزيد من الارتباط مثل «أخي الحبيب» أو «والله إني أحبك في الله» أو «والله لم يأتني النوم وأنا أفكر فيك» أو «والله يا أخي كنت أدعو لك بالخير منذ أن بدأ التغير» وغيرها من كلمات الود.

وعندما تنجلي الأمور يتعاهد الطرفان بالإخاء، ويتعانقان ويدعو الطرف الزائر الطرف المزور عنده على وليمة، ليتأكد الصفاء، وتدوم الأخوة.

ظاهرة الملل

كنت أدرس في الولايات المتحدة حين اتصل بي أحد الشباب في ساعة متأخرة من الليل ليخبرني بأن بعض شباب المسجد تشاجروا مع أفراد الفريق الأمريكي عندما كانوا يلعبون مباراة في كرة السلة. تألمت للخبر، واستغربت هذا التصرف اللامسؤول من شباب المسجد وطرحت هذا الموضوع للنقاش

مع بعض الإخوة فقال لي: «لا تلوموهم فإن ذلك ناشىء من الملل والرتابة والروتين اليومي، كل يوم دراسة في الصباح وفي الليل يأتون للمسجد لصلاة المغرب، والعشاء ويستمعون إلى الخاطرة، ثم يرجعون إلى البيت ويدرسون أو ينامون».

لقد أثار هذا الطرح الذي طرحه أخي، وهذا التحليل لهذا الشغب من شباب المسجد، نقاشاً مع أحد الشباب في أحد الولايات الأمريكية وكان يبدو عليه سمت الإيمان والخلق القويم عندما سألني عن نفس القضية، عن شعوره بالملل والروتين اليومي، مما جعله يحس بالضيق والانعزال بعض الشيء عن شباب المسجد. وأذكر أنني مما قلت له: إن زوال هذا الملل راجع للإنسان ذاته، يجب عليه أن يكسر ذلك الروتين وذلك الجمود، يجب عليه أن يجلس مع نفسه ويفكر كيف يحدد يومه وحياته، لا بد من التفكير بوضع لمسات جميلة في حياتنا اليومية، كما يضع الرسام المحنَّك لمسات صغيرة في لوحته تجعلها تنبض بالحياة، والداعية فنان يجب عليه أن يحسن اختيار تلك اللمسات في حياته ليكون يومه متجدداً دائماً. ومثالاً على ذلك:

١ - يقوم بأداء بعض العبادات الخفيفة التي لم يتعوَّد فعلها، كأن يتوضأ كل يوم قبل ذهابه للجامعة أو العمل ثم يصلي ركعتي الضحى.

٢ - يجعل جزءاً من وقته لملاعبة أبنائه إن كان متزوجاً أو إخوانه الصغار إذا كان عازباً.

٣ - يجعل له بعض الزيارات لأحد المشايخ أو أحد إخوانه.

٤ - يجعل له بعض الرحلات إلى المدن القريبة من مدينته، للتفسح في حدائقها، ومتاحفها، وبعض مؤسساتها العلمية.

٥ - زيارة بعض الإخوة سواءاً داخل المدينة، أو خارجها.

٦ - يقوم بعض أيام الأسبوع بعمل رياضة إما فردية كالجري أو الجماعية، بشرط التمسك بالأخلاق الإسلامية، وترك الغضب.

٧ - يذهب إلى بعض المكتبات العامة، ويطَّلع على الكتب الموجودة، والأشرطة التي يمكن أن تنفع المسلمين.

٨ - تغيير مكان الدراسة من مكتبة الجامعة إلى مكتبة أخرى مثلاً.

٩ - العشاء أو الغداء في مطعم خارجي.

هذه بعض المقترحات، وهي في غالبها من المباحات التي تعين المسلم على تجدد حياته، وكسر طوق الجمود والرتابة.

مسببات الملل:

لا شك أن من أكبر أسباب الملل هي:

١ - تكرار أداء نفس العمل يومياً.

٢ - الفراغ القاتل في حياة الإنسان.

٣ - عدم الإحساس بقيمة الوقت.

٤ - الكسل أو عدم الجرأة للقيام بعمل جديد في الحياة اليومية.

كيف عالج الإسلام الملل:

ولم يُغفل الإسلام طبيعة الإنسان وبشريته، ولم يعامله كما يعامل الجماد أو الآلة، فالخالق يعلم أن للمخلوق الذي خلقه طاقة محدودة لعمل شيء ما، فلا يمكن أن يكون بنفس الإنتاجية والمستوى طوال يومه أو شهره أو سنته، لذلك فلا يوجد كالإسلام دين فيه تجديد دائم، يبعث الحياة والتجديد في هذا الإنسان. لقد فتح باب العبادات واسعاً يستطيع المرء على قدر طاقته أن يغرف منه ما يشاء، وما يناسب تلك الطاقة. وجعل العبادات فيها الكثير من التجديد. فشهر في السنة يكسر فيه الإنسان الروتين ويصومه، وأياماً أخرى يمارس المسلم شيئاً يختلف تماماً في كل ما يقوم به في عمره وهو الحج، كما فتح باب العمرة لمن شاء دون أن يحدد عدداً معيناً. ونوّع في الصلوات فكان منها الفروض الخمسة، ونوع آخر من الصلوات يختلف عن الصلاة الاعتيادية، مثل صلاة الكسوف والخسوف والتي يمكن أن تحدث في أي وقت من السنة لتكسر ذلك الروتين وصلاة الاستسقاء بما تشمل من التجمع في الصحراء،

والدعاء من الجميع، ومنظر المطر وهو ينزل، وصلاة التسابيح، وغيرها.

هذا من جانب الشعائر التعبدية، أما من جانب المباحات فإنه حث على الرياضة والتي منها ركوب الخيل والرمي والمصارعة والجري كما هي واضحة من أقوال النبي ﷺ أو من أفعاله مع صحابته الكرام رضي الله عنهم، وحث على ملاعبة الأطفال، ومداعبة الزوجات، وزيادة الإخوان، والترويح أثناء الأعمال بالنشيد العفيف، وقول الشعر، والتفكر في مخلوقات الله وغيرها من المباحات، والرسول ﷺ يقول: «**ساعة وساعة**».

هل أدينا الواجب؟

تذكرت وأنا أناقش هذا الموضوع قولة العالِم الجليل حسن البنا رحمة الله عليه عندما قال: «الواجبات أكثر من الأوقات» وصدق الرجل فيما قال. لو أن أحداً من هؤلاء الذين يشكون من الملل جلس مع نفسه وفكر في الواجبات المطلوبة منه كمسلم هل سيجد متسعاً في وقته للتفكير بالملل أو الضيق؟

إن عدم أدائنا للكثير من الواجبات الملْقاة علينا سبب رئيسي في نشوء هذا الفراغ الكبير لدى قطاع كبير من المسلمين، ولنأخذ على سبيل المثال بعض هذه الواجبات:

١ - أداء جميع الصلوات في أوقاتها في بيت الله.

٢ - صلة الأرحام وعلى رأسها الوالدين.

٣ - التحسس بحاجة الإخوة في الله وقضائها.

٤ - قراءة شيء من القرآن يومياً.

٥ - تحسين قراءة القرآن ومعرفة التفسير.

٦ - دراسة الفقه والسيرة والتاريخ.

٧ - المبادرة بالكشف الصحي.

٨ - عَيادة المرضى، وزيارة المستشفيات والمقابر.

٩ - الإكثار من المطالعة في الكتب الإسلامية، والثقافة العامة.

١٠ - تبليغ الدعوة للأقارب والأصدقاء.

١١ - تربية الأبناء على الإسلام وأخلاقه وقيمه.

هذا شيء يسير من الواجبات والتي يشكل القيام بها كسراً لذلك الروتين اليومي والملل.

الإحساس بقيمة الوقت:

إن السر الذي جعل حياة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لا يوجد فيها مصطلح «الملل» أنهم كانوا يحسون إحساساً عميقاً بقيمة الوقت فما كانوا يضيعون لحظة حتى في مباحاتهم بغير نية صالحة، وكأني أرى امرأة التابعي الجليل مسروق الذي أسلم في حياة النبي ﷺ وهي تبكي لكثرة ما يفعل مسروق بنفسه وتقول: «كان مسروق يصلي حتى تورم قدماه، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه»[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٩٥.

وجاء في ترجمة أبي إسحق عمرو بن عبدالله التابعي الجليل الحافظ شيخ الكوفة وعالمها ومحدثها قول أبي الأحوص: «قال لنا أبو إسحق: يا معشر الشباب اغتنموا ـ يعني: قوتكم وشبابكم ـ فما مرت بي ليلة إلا وأنا أقرأ فيها ألف آية، وإني لأقرأ البقرة في ركعة، وإني لأصوم الأشهر الحرم، وثلاثة من كل شهر، والاثنين والخميس»[1].

وكانت رابعة العدوية رضي الله عنها تثب من مرقدها لإحساسها بفوات الوقت بالنوم الكثير، وتقول لنفسها: «يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور»[2].

إن همهم الشاغل هو الآخرة، ولحظتهم الأخيرة في هذه الحياة، لذلك فهم يسابقون الوقت ليملؤوه طاعة وقربة، حتى يزيد بهذه الأعمال من درجاتهم، وينجوا بسببها من العذاب الأثيم والحسرة والندامة الأكيدة. بعدما استيقنوا أنه لا مجيب لمن أراد الرجوع للدنيا لاستدراك ما ضاع من الأوقات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٩٧/٥.

(٢) صفة الصفوة ٣٠/٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

التشكيك بالإخلاص

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه صحيحاً على السنة. فالإخلاص من أهم الأمور في حياة المؤمن. وللشيطان مدخل عجيب من هذا الباب، إذ أنه يأتي لبعض من وهبهم الله قدرة في العطاء كإلقاء الدروس، أو الكتابة، أو الخطابة فيكرّه له فعل هذه الأمور من باب التشكيك في الإخلاص ليمنعه من فعل هذه الأمور، والتي يعلم الشيطان مدى أثرها العظيم في هداية الكثير إلى الصراط المستقيم. وكم قرأنا عن علماء أحرقوا كتبهم، أو دفنوها، أو ألقوها في البحر، وقد حرموا بهذا الفعل المسلمين من علم وافر، فقط لتشككهم في نياتهم بسبب ما ألقى الشيطان في نفوسهم من التشكيك في إخلاصهم.

أنواع البشر

شبّه الله تعالى بعض أنواع البشر بالبهيمة فقال تعالى: ﴿ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

وشبّه الله تعالى قلوب بعض أنواع البشر بالحجارة فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1].

وشبّه الله تعالى بعض أنواع البشر بالخشب فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2].

وشبّه الرسول ﷺ الناس بالمعادن فقال: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[3].

كما شبّه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة.

ومن هذا يتبين أن الإنسان وإن كان متميزاً على باقي المخلوقات إلا أنه يتأثر بصفاتها، وبطباعها. فهي البيئة التي يعيش فيها. وكما قال الإمام ابن القيم في معرض حديثه عن النفوس الحيوانية: «فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها. فمنهم من نفسه كلبية، لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب. ومنهم من نفسه حمارية، لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد في كده. ومنهم: من نفسه سبعية غضبية، همته العدوان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٤.

(٣) مسلم ـ المختصر ١٧٧٢ ـ وله تكملة.

على الناس، ومن الناس من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوي عليها. ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش...»[1].

وكذلك حال الأشجار فمنها ما يسرع في نموه ويهيج، ولكن لا يصمد لأي ريح تهب عليه، فتقلعه من أصله أو تقطع فروعه، وهذا حال ذلك الذي يبدو في ظاهره الصلاح وهو يبطن النفاق.

ومنها ما يأخذ وقتاً طويلاً حتى ينمو، ولكن بعد أن ينمو ويستوي على سوقه لا يحفل بالعواصف ولا القواصف، كالنخلة، وهذا هو حال المؤمن الصادق.

وكذلك المعادن فمن الناس من هو مثل معدن الذهب ببريقه وندرته وغلاء ثمنه وسهولة تشكيله.

ومنهم من يشبه الذهب بلونه الخارجي، ولكن ليس بخصائصه إنما هو كالنحاس، ومنهم ما يشبه الفضة كالألومنيوم، ولكن لا يحمل خصائص الفضة من حيث سرعة التوصيل، وسهولة التشكيل، وطول العمر.

وكذلك الزهور، فمن الناس من ليس لديه مظهر جميل ولكن رائحته طيبة مثل بعض أنواع الزهور، ومنها الذي منظره جميل ورائحته حسنة، ولكن الأشواك تحيط به من كل جانب، ومنها ما هو معدوم الرائحة والمنظر ولكن فيه فائدة العلاج من

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٢١١/٢١٢ بتصرف.

بعض الأمراض، ومن الزهور ما يترك في يديك عندما تلمسه رائحة طيبة، أو إذا وضعته في مكان ترك رائحة طيبة. كذلك بعض الناس أينما حلّ يترك أثراً طيباً.

وكذلك الحال في الأطعمة فمنها الحلو ذو الرائحة الطيبة، ومنها المالح ومنها الصلب الذي لا يذوب إلا في السوائل الحارة، ومنها ما هو من غير ملوحة، وكذا الحال في الفواكه والجمادات وغيرها. والله أعلم.

غنى الله عن عباده

الله هو الغني سبحانه، فلا يحتاج لعباده بأي شيء لأن الحاجة علامة الضعف، وليس في الإلٰه ضعف إنما هو صاحب القوة والملك، وهو الذي يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[١].

والإنسان عندما يقوم بالعبادات والمجاهدات إنما يقوم بها لنفسه ولإصلاحها، ولتكون سبباً في نجاحه يوم القيامة، ولا ينتفع بها الله سبحانه وتعالى، يقول تعالى:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[٢].

يقول سيد رحمه الله: «فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦.

وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق، فإنما ذلك لإصلاحهم، وتكميلهم، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة. والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه، ويرفع من تصوراته وآفاقه، ويستعلي به على الشح بالنفس والمال، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات. وذلك كله قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة، وما يعود عليها من صلاح حالها، واستقرار الحق بينها، وغلبة الخير فيها على الشر، والصلاح فيها على الفساد»[١].

إن بعض النفوس التي تتقاعس عن العبادة، إنما تظن أنها تقوم بالعبادة لأن الله بحاجة لها، وهذا وهم يلقيه الشيطان في نفوسهم وينسيهم أن أول المنتفعين بذلك هم أنفسهم، وهذا النداء العلوي إنما هو استنفار للقوى الكامنة في النفس البشرية أن تهب وتبادر لإنقاذ نفسها، وترك التهاون بهذا الأمر العظيم، وعدم تضييع الأوقات، لأنه لن ينقذ النفس إلا ذاتها، وذلك بما تقدم من أعمال، لتستحق بعد ذلك رحمة الله تعالى ورضاه.

تفسد الأرض بالمعاصي

يقول الله تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[٢].

(١) الظلال ٥/٢٧٢٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

قال زيد بن رفيع: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه[(١)].

وقال أبو العالية: «من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة: **«حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً»**[(٢)] والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم، أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض»[(٣)]. وما هذا البلاء المتساقط على العالم، من كثرة النوازل والكوارث، والأمراض التي لم تكن فيمن مضوا إلا نتاج تلك المعاصي، وما هذا الذل الذي غطى العالم الإسلامي إلا سبباً من تلك المعاصي، وأن المعصية يتأذى منها كل ما يدب على هذه الأرض لذلك جاء في الصحيحين عن أبي قتادة بن ربعي: **«العبد المؤمن يستريح من تعب الدنيا. والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»**[(٤)] وكذلك الطاعات فإنها تؤثر على أحوال الأرض والسماء ولذلك عندما ينزل عيسى عليه السلام، ولا يبقى في الأرض عاصٍ تخرج الأرض بركاتها، وتعود الثمار إلى أحجامها الحقيقية،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٥.

(٢) رواه النسائي، وحسنه الألباني (ص.ج.ص ٣١٣٠).

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٥.

(٤) مسلم (٩٥٠) البخاري الفتح ١١/٣٦٢/٦٥١٢.

فكما جاء في الحديث الصحيح «**فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها**»[1].

وكل هذا الفساد الذي يحدث في البر والبحر إنما هو عقوبة للناس بسبب معاصيهم، لعلهم بعدما يرون ذلك النقص في المال والأنفس والثمرات يرجعون إلى ربهم، ويتركون معاصيهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أسلَمَتْ ليلة القدر

لقد كنت أقرأ قصص الصحابة رضي الله عنهم، وعن سرعة الاستجابة لديهم، فمجرد أن يؤمن أحدهم حتى ينزع ثوب الجاهلية ويلقيه على عتبة الإسلام، فتكون له من الهمة العالية ما يحسبه مسلم هذا الزمان من المعجزات والأساطير. وشاء الله أن يريني الله بعضاً من سننه في خلقه، ويثبت لي أن هذا الدين الذي بنى ذلك الجيل، وأخرج تلك النماذج الفذة في التاريخ، لقادر على أن يخرج في كل جيل أصحاب همم عالية تذكرنا بجيل الصحابة رضي الله عنهم. فقد اتصلت إحدى السيدات الأمريكيات وكان والدها قساً لكنيسة، في المركز الإسلامي في مدينة ديتون، تطلب من يشرح لها عن الإسلام، فكلمها أحد الأخوة المسلمين من الأمريكان، فانشرح صدرها لهذا الدين، وأبدت استعدادها للدخول فيه، وحدد أحد المسؤولين موعداً في

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم ٤/٢٢٥٠ والعصابة: الجماعة أقل من أربعين.

الليل، وكانت تلك الليلة هي ليلة السابع والعشرين من رمضان لعام ١٤١٠ هجرية الموافق لعام ١٩٩٠م، فجاءت تلك السيدة، وجلست معها واثنين من الإخوة نشرح لها الإسلام، فأبدت كل استعداد للشهادة، ونطقت الشهادة في ليلة القدر[١]، وفي اليوم الثاني صامت وأفطرت مع الأخوات في المسجد وفي اليوم الرابع تحجبت، وفي أول أيام العيد ذهبت للعمل بالحجاب الإسلامي، وعزمت على أن تدعو ولديها ليدخلا في الإسلام، نسأل الله لنا ولها الثبات.

فن استغلال الوقت

هذه النفس عجيبة التركيب، متقلبة المزاج، فلا تستقر على شيء واحد، ولذلك كان الكيس هو الذي يعرف كيفية استغلال وقته بما يعود عليه بالخير، بمعرفة تقلبات هذه النفس، واختلاف مزاجها، فربما أقبلتَ على القراءة في وقت ليس فيها ميل للقراءة، فلا تتحير عند ذلك وتكون أسيراً لشهواتها، بل انقلها إلى عبادة أخرى كالكتابة، أو صلاة خفيفة، أو قراءة قرآن، أو مشاهدة شريط فيديو لمسرحية إسلامية، أو عالم الحيوان لترى عجائب خلق الله، وإذا رأيتها معرضة عن ذلك كله فلا تيأس، وانقلها إلى عالم آخر من العبادات كالخروج إلى الحدائق والمنتزهات والتفكر بعظيم ودقة خلق الله. أو زيارة

---

(١) اختلف في تحديد ليلة القدر، ويرجحها ابن عباس أنها في السابع والعشرين.

لمدعو ترقق قلبه وتذكره بالواجب، أو زيارة لعالِم تكسب منه علماً، أو لقرين تراجع معه علماً، أو زيارة لمكتبة إسلامية، أو مؤسسة إسلامية لترى نشاطها وتزيد من دعمها وتتعرف عليها عن كثب، أو زيارة قريب لتؤكد صلة الأرحام، أو مريض أو سجين، أو تأخذ الأطفال إذا كنت متزوجاً إلى نزهة لتزيد من علاقتك واحتكاكك بهم، أو تقضي حاجة الوالد والوالدة، أو الزوجة. وكل هذه الأعمال من العبادات ما دمت تبغي بها وجه الله، وإن كان الأصل في ذلك أن يكون المسلم مبرمجاً لحياته حريصاً على وقته أن لا يضيع سدى، ولكن تبقى ساعات حرة قد يحتار المرء كيف يستغلها، ولذلك فقط كان هذا التنويع من العبادات والتي قد تغيب عن البعض فيحسب العبادة هي صلاة وصيام وقراءة قرآن وذكر وكفى.

معوق وسجين

عندما يسري حب الله في عروق الإنسان، ويستشعر عظيم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ومدى التقصير الواقع فيه. ويتألم لواقع أمته البعيد عن هدى الله، وخاصة أقرب الناس إليه، حينها تخرج منه الأعاجيب، ولا يلقي بالاً بالقيود الخارجة عن إرادته عن التحرك في سبيل الله بمقدار ما يسمح له به التحرك، وبمقدار الطاقة التي يملك أن يتحرك فيها، ليكون بعد ذلك حجة على القاعدين ممن ليس فيهم من العوائق شيء البتة، ولكنه الإخلاد إلى الأرض، ورغبة الأسر تحت سيادة النفس والهوى. فهذا معوق في المدينة التي كنت أدرس فيها في

الولايات المتحدة لا يستطيع المشي إلا بصعوبة، كما لا يتسطيع الكلام إلا بصعوبة، وإذا ما تكلم يصعب على المستمع تمييز كلامه، ومع كل هذه القيود كان يرد على أمريكي رآه يصلي ويشرح له معنى الصلاة والإسلام حتى أقنعه بالدخول بهذا الدين، فجاء إلى المركز ليعلن إسلامه.

وسجين أمريكي في نفس المدينة أسلم في السجن وأحب الإسلام وسرى في عروقه، وملك عليه فكره وأحاسيسه، وحزَّ في نفسه أن يبقى والداه على الكفر، فأصرَّ أن يعمل شيئاً لإنقاذهما فسعى سعياً شديداً في كل زيارة يزورانه بها أن يشرح لهما الإسلام ومبادىء الإسلام وأخلاقه، حتى شاء الله أن يقتنعا على يديه بهذا الدين، وإذا بوالده تراه غادياً ورائحاً بالثوب العربي: «الدشداشة» والطاقية، وأمه تلبس الحجاب معتزة به لا يهمها كلام المجتمع ما دامت مقتنعة بهذا الدين العظيم.

الزنبيل والتعبأة

كان هناك مثل أسمعه من كبار السن قبل ذهابي للدراسة في بريطانيا عام ١٩٧٤ وهو في اللهجة الدارجة «إللّي ما يحط زنبيله ما حد يعبي له».

ويعني أن الذي لا يضع سلته لا أحد يملؤها له، أي أن الذي لا يريد الشر لا يصل إليه الشر، ما دام مبتعداً عنه وغير داخل بأسبابه ومسبباته، وكان بعض كبار السن يستند إلى هذا المثل لشرح أسباب فساد الشباب وانحرافهم، وخاصة بما يتعلق

بالفاحشة، سواء كانوا داخل البلاد أو خارجها.

كان هذا المثل لا يفارق حياتي الدراسية وكنت في بداية السنتين اللتين قضيتهما في بريطانيا عازباً، وهذا من أصعب الأمور في بلاد الغرب، ولكن الله ثبتني برحمة منه ثم لاستعانتي بالكثير من أسباب الثبات والتي كان منها الابتعاد عن أماكن القذارة، وعدم التحرش أو حتى التحدث من غير سبب لامرأة، أو التكسر والتميع معها بالكلام، فلم أتعرض ولم يتعرض الإخوة الآخرون من الملتزمين لفتنة النساء طوال فترة بقائهم في بريطانيا، لمدد تتراوح بين الأربعة والسبعة أو حتى العشر سنين، بينما كانت تأتينا الأخبار عن زملاء لنا في الدراسة تعرضوا للسجون وللضرب والسكاكين والسلاسل، لأنهم أرادوا تلك الطريق فوضعوا «زنابيلهم» فأكلوا مما وضع لهم. وبعبارة واضحة «الذي لا يتعرض للنساء لا تتعرض النساء له» هذا هو الأصل وإن كان لهذا الأصل شذوذ بعض الأحيان لا يخرجه عن الأصل.

بائعة اللبن ومدرسة الموسيقى

عندما يتصفح المرء التاريخ الإسلامي يتملكه الإعجاب والإجلال لذلك الجيل من الرعيل الأول، وكيف بلغوا قمة السلوك البشري بتنفيذهم ما جاء في الكتاب الكريم والسنّة المطهرة.

ثم يلتفت إلى واقعنا المرير فتصيبه الحسرة على ما آل إليه حالنا من الانحطاط والانحدار، حتى غدونا في ذيل قائمة الأمم

بعد أن كنا خير أمة أُخرجت للناس. هذا الشعور بالحسرة قد يؤدي بالبعض إلى اليأس من عودة مثل تلك النماذج البشرية الفذة، ولكن الحق يجانب هذا الشعور، فإن هذا الكتاب الكريم الذي خرَّج مثل أولئك الرجال لقادر على أن يخرج أمثالهم في كل جيل، ومن المؤكد أن أي جيل سيأتي لا يحوز الفضل والخيرية كالرعيل الأول، لأن رسول الله ﷺ قال فيهم: «**خير الناس قرني**»[1]. ولكن هذا لا يمنع أن تخرج نماذج من هنا أو هناك تماثل الرعيل الأول، وقد تخرج جماعة تماثل الرعيل الأول في مواقفه، وجهاده وبلائه وإن لم توازه بالفضل، ومن المبشرات على ذلك مواقف الكثير من الرجال والنساء في هذا العصر، والتي أعادت قصص الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لتبرهن لنا قوة المنهج الذي له القدرة على تخريج النماذج البشرية الفذة في كل مكان وزمان. ومن قصص الصحابة المشهورة، قصة بائعة اللبن التي سمعها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما كان يعس في المدينة وهي تخاطب ابنتها أن تمذق اللبن بالماء فرفضت أن تمذقه وقالت لأمها: «أوَما علمت بعزمة أمير المؤمنين عمر بعدم فعل ذلك، فردت عليها الأم: ومن أدرى عمر بما نفعل، فقالت الفتاة: إذا كان عمر لا يعلم فرب عمر يعلم». فدهش أمير المؤمنين لهذا الموقف، وزوَّجها بأحد أبنائه والذي خرج من صلبه بعد ذلك عمر بن عبدالعزيز.

---

(١) رواه الترمذي بإسناد صحيح (الصحيحة ٦٩٩) وهو جزء من حديث.

قريباً من هذه القصة حدثت قصة مشابهة لفتاة صغيرة متفوقة في دراستها، تربَّت في بيت مسلم بين والدين ملتزمين أرضعاها التقوى والعلم والخوف من الله منذ نعومة أظفارها، فشبّت على ذلك، وفي ذات يوم من عام ١٩٩٠ نادتها مدرِّسة الموسيقى لتقنعها بجلب آلة موسيقية لتتعلم عليها العزف في الفصل، فجرى هذا الحوار:

المدرِّسة: إذا أتيت بالآلة الموسيقية سأزيد من علامتك وتصبحين من العشرة الأوائل.

الفتاة: لا أستطيع.

المدرِّسة: إذا علمتك الموسيقى فإن أمك وأباك سوف لا يريانك.

الفتاة: إذا كانت أمي وأبي لا يريانني فإن ربي يراني، وهذه الآلة من المستحيل أن أجلبها لأن الرسول ﷺ يقول في الحديث: **«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»**[1].

المدرِّسة: إذن أثبتي لي ذلك بالدليل.

بعد ذلك الحوار أضافت المدرِّسة لتلك الفتاة ٥ علامات لتصبح من ١٠ إلى ١٥ فتكون من العشرة الأوائل وفي الشهر الذي يليه تحجّبت المدرِّسة فأعطت العلامة الكاملة لتلك الفتاة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً ٤/٣٠، ووصله الطبراني (١/١٦٧/١) وله تكملة.

فسبحان من يعيد تلك النماذج، ليعيد فينا الأمل ويزيد الثقة بقوة هذا الدين.

إرادة القسيس وإرادة الله

احتجت أيام الدراسة في الولايات المتحدة أن أضيف مادة من خارج التخصص، في مجال الدراسات الدينية، لتقوية المعدل العام، وكنت قد أخذت لنفس الدكتور عدة دراسات دينية، فأجابني بالرفض، وذلك بسبب خروج قانون يمنع أن يأخذ الطالب أكثر من مادتين مع نفس الدكتور. وقال لي: إذا أردت أن يقبل القسم بذلك فما عليك إلا أن تكذب حينما يسألونك عن عدد المواد التي أخذتها معي. ذهبت إلى سكرتارية القسم وفي الطريق تجاذبني شعوران: الأول يدفعني للكذب حتى أحصل على الموافقة، والآخر يبغض إلي الكذب ويبعدني عنه، وكأن ملك الخير يقول لي: «أتفعل هذا وأنت تنصح الناس وتعظهم بالابتعاد عن الكذب، أوَما قرأت الأحاديث الكثيرة التي تنهى عن الكذب، وكيف تبني جزءاً من حياتك على الكذب».

فملت إلى الشعور الآخر، وما إن وصلت إلى سكرتارية القسم وسألتني ذلك السؤال حتى أجبتها بأنني أخذت أكثر من ثلاث مواد مع نفس الدكتور: فقالت: أوَما تعلم بأن القانون لا يسمح بأن تأخذ أي مادة أخرى معه لأنك أخذت أكثر من ثلاثة.

قلت لها: كنت أستطيع أن أكذب ولكن ديني يحرِّم علي ذلك.

فقالت: على العموم لا بد أن أُعلم رئيس القسم بذلك وأعطيك جواب بعد ثلاث ساعات.

والمعروف عن رئيس قسم الدراسات الدينية أنه شرس الطبع وليس له من المرونة شيء.

ذهبتَ من عندها وكان قد حان وقت صلاة الظهر، فصليت جماعة ودعوت في سجودي، وأثناء الدعاء كنت أيضاً بين شعورين الأول يقول لي: وماذا عساه أن ينفع الدعاء، ومعروف عن رئيس القسم أنه سيء الأخلاق، ولا يمكن أن يكسر القانون من أجلك، وقد رفض الكثيرين ممن هم في مثل حالتك.

الثاني يقول لي: أتشك في قدرة الله على قضاء حاجتك وأنه قادر على كل شيء قدير؟ فرجعت إلى الأصل واطمئننت لهذا الشعور الطيب، وزدت في الدعاء مع الاستيقان بقضاء الحاجة لي. انتهت الصلاة وذهبت إلى الجامعة ودخلت غرفة السكرتارية. وإذا بالسكرتيرة تقول لي: أعطني ورقتك.

فقلت لها: هل كلمت الرئيس؟

قالت: لا ولكني سأوقعها بدلاً منه. وأخذتها ووقَّعتها أمامي.

زاد يقيني بالله، واهتزت مشاعري أمام هذا الموقف وكان في ذلك دروساً لن أنساها إن شاء الله.

روعة الدعاء

عندما يصيب هذا الإنسان البلاء تلو البلاء، ويتراكم عليه حتى تضيق نفسه، فيلجأ إلى من يشكو إليه من البشر، وهو لا يملك أن يقدم ويؤخر، ومع ذلك فإن ذلك المبتلى يشعر بنوع من الراحة النفسية لأنه أخرج شيئاً من هذا الكبت الذي تراكم في أعماقه. فإذا ما ذهب إلى آخر من البشر، يعلم أنه يملك شيئاً من حل مشاكله، فإنه يشعر براحة أكبر عندما يشكو له ما أصابه، والشكوى للإنسان، مهما كان هذا الإنسان هو لون من ألوان الذل، ينقص كمال اللذة، والراحة النفسية، لأنه يشعر أنه في حالة ضعف يعينه فيه بشر مثله، والعون صفة من صفات القوة، لا يملكها في تلك الساعة ذلك المبتلى. فهو وإن شعر بشيء من الراحة، ولكنها ناقصة بسبب ذلك الشعور. ولكنه إذا ما لجأ إلى الله تعالى ملك الملوك، والقادر على كل شيء وشكى بين يديه كل ما أصابه، وكل ما يشعر فيه، وطلب كل ما يريد، بقدر ما يريد فإن ذلك ينشىء عنده العزة، لأنه لجأ إلى رب العالمين، واحتاج عونه، ولم يحتج عون المخلوقين، وينفس عنه كل ما تراكم من ضيق وحزن، وبعد أن يفرغ كل ما في نفسه، وتنسكب الدموع ذلة واعترافاً للضعف بين يدي مولاه، تهب على قلبه نسائم اللذة فينتعش بجمالها وروعتها، فتكون هذه اللذة أجمل ما تكون وهو ساجد، في أعظم صورة من صور الذل لله، وأقرب إليه، لذا قال الحبيب ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد لله وهو ساجد فأكثروا الدعاء»**[1].

---

(١) مسلم رقم (٤٨٢).

هذه اللذة المكتسبَة بالدعاء والتضرع والاعتراف بين يدي الله تعالى هي التي كانت تدفع الرسول ﷺ أيام مكة إذا ما تكالبت عليه الأمور واشتد عليه الضيق، من رفض الكفار لدعوته، ينادي بلالاً ويقول له: «**قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة**»[1]. فهي راحة لما كان يصيبه من البلاء.

فأنى يستجاب له

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا رب.. يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام، فأنىٰ يستجاب له**»[2].

هذا الرجل الذي ذكر في الحديث يمثل شريحة كبيرة في المجتمع، ويمثل نمطاً من التعامل مع الله تؤديه تلك الشريحة، دون أن يبذلوا هم من أنفسهم جهداً يغير تلك الحال، فيريدون تغييراً سحرياً، دون أن يغيروا من حالهم شيئاً، وهؤلاء مثلهم مثل ذلك الذي يطلب الأولاد وهو غير متزوج. والله تعالى غير عاجز عن تلبية الدعاء والاستجابة، ولكن بشرط أن يبذل هذا الإنسان ما يبرهن صدق توجهه في تغيير تلك الحال.. فلا يمكن أن يستجيب الله تعالى لذلك الشاب الذي يطلب من الله ألا يفتنه بالنساء، وهو لا يغض البصر، ويذهب إلى حيث توجد

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥) بإسناد صحيح (جامع الأصول ٤٣٧٥).

(٢) مسلم رقم (١٠١٥).

النساء، وينظر إلى البرامج التلفزيونية التي تتكشف فيها النساء، ولا يتورع عن رؤية الصحف التي فيها الكثير من عورات النساء، ولا يتورع من التحدث مع النساء، فكيف لهذا أن يستجاب له، وما لم يبتعد عن كل هذه المثيرات لن يستجيب الله له، فهذه هي سنته في الاستجابة، ولا فرق بينه وبين ذلك الأشعث الأغبر.

ولا يمكن أن يستجيب الله للمسلمين جماعات وأفراداً بالنصر، وهم لا يبذلون أسبابه.

فالبغض والفرقة والأحقاد وسوء الظن، وحب المنصب وغيرها من الأمراض تقطع وحدتهم، وتفرق صفوفهم، ومع ذلك يرفعون أكفهم إلى السماء يا رب.. يا رب فأنىٰ يستجاب لهم.

وكان من الأولى الدعاء بالتوفيق للتخلص من هذه الأمراض، التي تؤخر النصر، لا أن نطلب النصر مع وجود تلك العوائق، فهذا جهل بسنّة الله تعالى بالاستجابة.

ولا فرق بعد ذلك بينهم وبين ذلك الأشعث الأغبر.

وهكذا في سائر دعائنا، لا يستجيب الله له حتى يرى تحركاً عملياً، وجهداً بشرياً يصدق تلك الرغبة.

لجالدونا عنها بالسيوف

مما أُثر عن السلف الصالح قول أحدهم: «لو يعلم الملوك ما نحن عليه من العيش الطيب لجالدونا عليه بالسيوف» هذا

الفرح، أو ما أسموه بالعيش الطيب، والذي يجده المؤمن أحياناً، إنما ينشأ عندما يقوم المؤمن بأداء ما عليه من واجب العبودية لله تعالى، ولا يضيع وقتاً دونما استغلال فيما يعود عليه بالآخرة بالأجر والمنزلة العالية، فالفرح ينشأ بسبب توافق نفسه مع الفطرة التي فُطر عليها، وإنما الاضطراب والقلق إنما ينشأ من تناقض النفس مع الفطرة، فيشعر بوخز الضمير لأنه لم يقم بما عليه من واجب العبودية ولم يستغل أوقاته بما يعود عليه بالخير.

هذا الفرح الذي يهبه الله لبعض عباده إنما هو سبب لكي يكون هذا الإنسان محوراً يتجمع عليه الآخرون، وملجأً يلجأ إليه الظامئون لينهلوا من علمه ومواعظه، وليحل معضلاتهم ومشاكلهم من فيض ذلك النور الذي قذفه الله في قلبه، ولا يستطيع القيام بهذه المهام إلا من وهبه الله ذلك الفرح بالتوفيق لعمل الواجبات والنوافل، والحرص على الأوقات دون تضييع.

الطغيان والخوف

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١.

هذه الآية الكريمة تعرض النموذجين الرئيسين في البشر وجميع النماذج الأخرى إنما تتفرع من هذين النموذجين:

أما النموذج الأول: فهو ذلك الإنسان الذي ﴿طَغَىٰ﴾ أي تجاوز الحدود التي حددها الله تعالى لعباده، فتجاوز حدود الحلال ودخل في دائرة الحرام وفعل الذي نهى عنه رب العباد، وسبب ذلك الطغيان هو إيثاره لزينة الدنيا من النساء، والمال والمناصب والشهادات والولد وباقي الشهوات، آثره على ما أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، ومن كان هذا شأنه فإن منزله الذي سيأوي إليه حقيقة هو النار وإن أمهله الله في الدنيا وجعله يأوي إلى بيت فيه من النقوش والزخارف والنمارق والفرش الوثيرة فإن مأواه في آخر المطاف نار جهنم.

النموذج الثاني: هو ذلك الخائف لمقام ربه تعالى، خائف لشعوره برقابة الله الدائمة عليه. خائف لعدم معرفته بقبول الرب لأعماله أو عدم قبولها. خائف من الخاتمة التي لا يعرف كيف يختم له فيها. خائف مما سينتظره في حياة البرزخ. خائف مما عمل من المعاصي وما سيترتب عليها من العقوبة. خائف مما يحدث يوم النشور. خائف من الحساب يوم القيامة.

هذا الخوف من الجليل دفعه لنهي نفسه التي تأمره بتجاوز الحدود التي حددها الله لعباده.

تأمره بالكسل.

تأمره بالتراخي.

تأمره بالتنازل.

تأمره بالإكثار من المباح.

تأمره بتضييع أوقات كثيرة من غير عمل يرجع له بالأجر.

تأمره بالتفلت.

وتدعوه لأيام الماضي، وتجملها له. وتشوقه لأيام الجاهلية. وترغبه بأكل الحرام. وتقلل في عينه عقاب الله.

وهو في معارك ضارية مع نفسه، كلما رفعت رماح الهوى في وجهه كسرها، فهو في جهد وجهاد دائم مع نفسه التي تأمره بالهوى والنكوص.

ومثل هذا العبد يكون مأواه الجنة، وإن عاش في هذه الدنيا بئيساً مجهداً خائفاً فقيراً جائعاً معذباً، فإنما هي فترة مؤقتة يعود بعدها إلى موطنه الأصلي وداره التي تنتظره هناك في الجنان، وزوجاته اللاتي ينتظرنه من أمد بعيد، يعود عودة المنتصر في معاركه التي خاضها مع الشيطان والنفس والدنيا والهوى.

جدل مرفوض

عندما يقال هذا صواب وهذا خطأ فإنما يعتمد القائل على أصل يرجع إليه ويقيس الأمور بالنسبة له، فإن وافقته كانت صواباً وإن حادت عنه كانت خطأ، والأصل الذي لا خلاف بالرجوع إليه هو الأصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا

من خلفه، وهو الأصل الذي يستحيل عليه الخطأ ألا وهو الشرع الذي أنزله رب السموات والأرض. فيقال للسارق هذا خطأ لأن الشرع اعتبر السرقة خطأ، ويقال للمرابي هذا خطأ لأن الشرع اعتبر الربى خطأ، ويقال للزاني هذا خطأ لأن الشرع اعتبر الزنا خطأ.

وهكذا باقي الحلال والحرام، ولا يستطيع مسلم أن يجادل مسلماً آخر بتصويب المرابي مثلاً أو شارب الخمر، لأنه لا يستطيع معارضة ذلك الأصل الذي يستحيل عليه الخطأ، لأنه من رب السموات والأرض.

أما في القضايا الدنيوية البحتة، والتي لم ينزل فيها نصوص شرعية، كقضايا الذوق في الطعام والرائحة ومقاييس جمال الإنسان وجمال المنازل، فهذه قضايا لا يمكن أن يخَطِّأ إنسان آخر فيها أو يصوبه، لأنها راجعة للذوق البشري الذي لا يمكن أن يتطابق، كظاهرة إجماع على الإعجاب برائحة عطر معين مثلاً، فهذا أمر يستحيل، فمن غير المقبول على سبيل المثال أن يقول فلان لآخر: إن ذوقك في اختيار هذا العطر خاطىء، لأنه لا يوجد أساس على هذا الحكم، فلماذا اعتبر فلان ذوقه أجمل، وعلى أي أساس اعتبر ذوق الآخر أقل جمالاً أو خاطئاً.

وكذلك الطعام فما يعجبني قد لا يعجب غيري، فليس لي الحق أن أخطىء ذوق الآخر لأنه لم يعجبه ما أعجبني من الطعام، وهكذا باقي هذه الأشياء. فإن الأذواق تختلف فيها، ومنها ينشأ جدال مقيت مرفوض لأنه يحزن قلوب المؤمنين

ويضيع من أوقاتهم، عندما يختلفون في مثل هذه الأشياء ويبدأ أحدهم بتحقير ذوق أخيه سواءاً في الطعام أو الرائحة أو الجمال.

أسباب الإصرار على المعاصي

تأملت في الكثيرين من الخلق ممن يعلمون أن ما هم عليه من العمل معصية، تجب التوبة منها وتبديل الحال التي هم عليها، ولكنهم مع ذلك يستمرون في معصيتهم دونما تغيير، وتفحصت أسباب ذلك فوجدتها في سبعة أسباب رئيسة، قد تتفرع منها أسباب كثيرة أخرى ألا وهي:

١ ـ **خوف فوات بعض المصالح**: فهم يخشون فوات بعض المصالح إذا تابوا، مما هم عليه فالمرابي يخشى قلة الربح إذا أقلع عن الربا، والزاني يخشى فوات اللذة والمتعة، إن هو أقلع عن زناه، والمتبرجة تخشى فوات متعة التزين والتظاهر والتفاخر بين الزميلات بالموضات الجديدة، وتخشى إن هي تحجبت أن تحجب جمالها فلا يتقدم أحد لها.. وهكذا تتعدد المصالح التي يدّعيها صاحب المعصية أو يزينها له الشيطان ليبعده عن سلوك الصراط المستقيم.

٢ ـ **التسويف بالتوبة**: فيحسب أن العمر كما يريد، فيغريه الشيطان بتأخير التوبة ليتمتع بشبابه أو بمصالحه، وكلما دعاه داعي الخير للتوبة، دعاه داعي الشر لتأجيلها لليوم الآخر أو الشهر الآخر أو للسنة الأخرى، وفي كل مرة يعصي الله فيها

يعزم على هجر المعصية، ولكنه يضعف إذا ما أقبلت عليه بزينتها وبريقها مما يدعوه لاغتنام تلك الفرصة، وتأجيل التوبة قليلاً، حتى يدركه الموت وهو على هذه الحال.

٣ ـ **نسيان لحظة الموت**: فهو ينسى أن له موعداً محدداً لا يزيد عليه، ولا يمكن لقوة من قوى الأرض أن تزيد في عمره أقل من ثانية.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

وهذا النسيان هو الذي يجعله يصر على معاصيه، لأنه يحسب أن في الوقت متسعاً، وينسى أن الله تعالى لا يقبل توبة أحد وهو في سكرات الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[2].

وينسى أن هذه اللحظة قد تأتي في أي وقت من عمره.

٤ ـ **غلبة العادة**: لقد تعوَّد على فعل هذه المعصية، حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من حياته اليومية، كالطعام والشراب بالنسبة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٩ ـ ١٠٥.

له، فلا يعرف العيش ولا يتصوره من غيرها، والتصق بها والتصقت به حتى صارت مثل دمه، بل هي دمه الذي يجري في عروقه، وجلده الذي يغطي عظامه، فهو لا يتخيل أبداً أن يتخلى عنها وهي بهذه الدرجة من الالتصاق.

٥ - **دنو الهمة:** فالدافع إلى إحداث التغير عنده ضعيف، فهو متردد بالتغيير، خائف منه بسبب قلة الانفعال والتأثر بالرادع الذي يردعه في اقتراف المعصية، فهمته عالية باقتراف المعصية، وسافلة في معالي الأمور، ومن حقائق علم الحيوان أن الحشرات أو الميكروبات التي تعودت على الأكل من النجاسات والقاذورات لا تحسن العيش إلا بذلك الجو، وأنها تموت لو وضعت في غيره.

٦ - **ضعف الخوف من الله:** فلو زاد وقوي الخوف عنده من الله تعالى لما أصرّ على معاصيه، ولكن قلة الخوف، والشعور بالأمان سبب رئيسي يؤدي إلى الإصرار، يحسب أن الأمر هزل ولهو، كما قال صاحب الجنة وهو يستهزىء بصاحبه المؤمن: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾[2].

٧ - **عدم الاستشعار بلذة العبادة:** فهو يحاول أن يقلع، ولكنه لا يجد لذة عند إقلاعه عن المعصية، وذلك بسبب تعلق

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الطارق، الآيتان: ١٣، ١٤.

قلبه وتشبثه بها، فالله يحرمه من لذة العبادة، حتى يحطم أصنام المعصية في داخل قلبه، ويفتح أبواب قلعة القلب، ليسهل على كلمات الوحي أن تدخل من بوابات ذلك القلب التائب أفواجاً، ولكن قبل ذلك هيهات أن يستشعر بلذة ما، وهذا يجعله يصر على المعصية.

الأخوة في الغربة وفي الوطن

تعرفت على أحد الإخوة في بلاد الغربة أثناء الدراسة وزادت المحبة في الله بيننا لدرجة أن أحدنا كان يشتاق الآخر عند غيابه اليوم أو اليومين في عطلة نهاية الأسبوع. فنجد معاني الأخوة جميعها تتجلى في تلك العلاقة من التضحية والإيثار، وقضاء الحاجة، والعيش والإحساس المشترك فيما يحدث لأحدنا من البلاء، ومصائب الدنيا، والمناصرة، والاحترام إلى آخر تلك الأخلاق الرائعة. وقبل أن يغادر بعد انتهائه من الدراسة تعاهدنا على اتصال تلك العلاقة، وعدم الانشغال بالدنيا عن مواصلتها، ولكن وللأسف الشديد حدث العكس تماماً حيث لم يعد لتلك الأيام والليالي التي قضيناها سوياً أي أثر في مواصلة تلك الأخوة، وغدت حتى المكالمات التلفونية خالية من حرارة الأخوة، ولهيب الاشتياق، وانقطعت الرسائل، وفترت العلاقة، وأصبحت تلك الأخوة تاريخاً يُذكر أو حتى لا يُذكر في الكثير من الأحيان.

وعند العودة للوطن حاولت أن أصل الحبل الذي لم يبقَ فيه إلا شعيرات وينقطع بالتزاور والهدايا والمهاتفة، إلا أن الأمر

لم يعد كما كان بالسابق، وأصبحت تلك العلاقة عادية جداً، وأحياناً أقل من العادية.. تألمت لهذا الأمر، وظننت أن هذه حادثة فردية لا يمكن أن تصلح للتعميم، ولكن بعد سفري المتكرر للدراسة ولما تقتضيه طبيعة عملي في بلاد الغربة، تكررت نفس الصورة ليس معي فقط بل مع آخرين حدثوني بنفس هذا الأمر فتيقنت أن هذه لم تعد حادثة فردية، بل هي ظاهرة عامة لا ينجو منها إلا القليل من القليل، وحاولت أن أبحث عن أسباب هذه الظاهرة فوجدتها في الآتي:

١ ـ أن الغريب وخاصة في بلاد الكفر يشعر بوحشة عظيمة تلجؤه إلى من يماثله في الدين والخلق ليشعر بالأمان والطمأنينة.

٢ ـ أن هذا الغريب جاء من جو عاطفي مشبع بالعاطفة، التي تلقاها من أمه وأبيه وإخوانه وأخواته وأقربائه وبعض الحميمين من أصدقائه، يحيطونه بتلك العاطفة التي يحس بها كل يوم، بل وكل دقيقة لأنه مغموس فيها. فعندما يأتي إلى مجتمع الغربة، يفقد كل ذلك الجو، فيحاول غريزياً أن يعوض ذلك الجو بأن يعطي أو يأخذ كل تلك العاطفة التي كان يتلقاها في موطنه إلى هذا الأخ الذي تعرَّف عليه، فلذا تراه يغمره بالمشاعر العاطفية الجيّاشة حتى يكون له نفس الجو الذي فقده. خاصة إذا كان هذا الأخ الذي تعرَّف عليه يكبره سناً وخبرة في هذه الحياة في بلاد الغربة، فإنه يعامله حقيقة معاملة الولد للوالد.

٣ ـ الخوف من التأثر أو الانحراف مع أهل بلاد الغربة، لئلا يفقد ما لديه من الأخلاق والقيم، يجعله يعيش في ذلك الجو للحفاظ على قيمه وأصالته.

٤ ـ وهذا السبب فيما يبدو أنه من أهمها ألا وهو عدم بناء تلك الأخوة على أصولها الصحيحة. كالحب في الله والبغض في الله، وإنما جعل ذلك شيئاً ثانوياً، بل الأصل الذي التقى فيه مع أخيه وحدة الإقليم، واللغة، وربما كبر السن أو القدم في هذه البلاد، أو الناحية العلمية حتى الدينية فيها، ويضاف إلى هذا الدين.

٥ ـ قلة الانشغال في بلاد الغربة، ولشدتها في الوطن حيث يزيد انشغال الأخ مع أهله وأبنائه وأقربائه وحاجاته الخاصة، وأمور عمله وعلاقاته الخاصة، ينسي تلك العلاقة الأخوية، وخاصة أنه لم يعد يشعر بحاجة لها كما كان يشعر أثناء الغربة، فقد عاد للجو المفعم بالعاطفة الطبيعية، وليست تلك التي صنعها هو لنفسه وحاول أن يعوضها عما فقده، فيبقى في قلبه ما كان حقاً حباً خالصاً لأخيه وربما كان قليلاً لو أخرجنا منه ما كان صناعياً.

٦ ـ الجهل بمعاني الأخوة وواجباتها: إن هناك بعض العلاقات الأخوية التي تبدأ في بلاد الغربة بقوة، وتستمر في قوتها لا تفتر أبداً مهما طال الفراق، وتغيرت الأرض، وتطاول الزمان، وتباعدت الأجساد، وهذه هي المحبة الأصيلة الخالية من كل شيء صناعي، بل خالصة لله تعالى. قال رجل لضيغم

العابد: «أشتهي أن أشتري داراً في جوارك حتى ألقاك. قال: المودة التي يفسدها تراخي اللقاء مدخولة»[1]. بل الأخوة الحقة هي التي تنمو دائماً وتتأصل في جذور القلوب، وتزداد روعة وجمالاً كلما تقادمت، هكذا يصفها الشاعر عندما قال:

«أخ طاهر الأخلاق عذب كأنه
جنى النحل ممزوجاً بماء غمام
يزيد على الأيام فضل مودة
وشدة إخلاص ورعي ذمام»[2]

احتمال زلل الإخوان

إنما تنشأ الفرقة، وتفتر الأخوة بين الأخوة في الله إذا ابتعدوا عن التماس الأعذار لبعضهم البعض، وإحسان الظن فيما يبدو من بعضهم البعض، ومعاملة بعضهم البعض كأنهم ملائكة لا يخطئون.

إننا كبشر لا بد لنا من الخطأ، لأننا لسنا بمعصومين ولهذا لا بد أن يتوقع الأخ من أخيه الزلل، ولا بد أيضاً أن يهيىء نفسه لتحمل ذلك الزلل لبقاء الأخوة. ومن أبى إلا مصاحبة من لا يزل فأولى له أن يصاحب جنساً ليس من البشر. أو يحكم على نفسه بقلة الصديق، وكثرة الأعداء وليستمع من الإمام

(١) ربيع الأبرار ٤٣١.

(٢) ربيع الأبرار ٤٣٦.

القدوة، التابعي الجليل رجاء بن حيوه وهو يوجهه بقوله: «من لم يؤاخِ إلا من لا عيب فيه قلّ صديقه، ومن لم يرضَ من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه»[1].

ويعتبرها أمير المؤمنين بالحديث الإمام عبدالله بن المبارك أحد حقوق الأخوة فيقول: «من حق الصديق أن يحتمل له ثلاثاً:

ظلم الغضب.

وظلم الهفوة[2].

وظلم الدالة»[3].

فيعتبر الزلل ظلم في حق الأخوة، ولكن ذلك لا يكون مبرراً لقطع تلك الأخوة، بل إنه يعتبر احتمال ذلك الظلم حقاً من الحقوق يجب مراعاته وعدم نسيانه، ونرى جيل التابعين رضي الله عنهم كيف يربون أبناءهم التربية الصالحة والتي من أسسها مرافقة الصالحين، وهذا أحدهم وهو عبدالله بن شداد الهادي يوصي ابنه مرافقة الصالحين، ولكنه ينبهه قبل أن يصاحب الصالحين بأن ينتبه لبعض مداخل الشيطان، ويراعي بعض الحقوق التي بنسيانها تتداعى الأخوة وتنهدم، فيقول له:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٩٥٨.

(٢) الدالة من الإدلال، وهي سقوط الكلفة ثم يكون التجاوز.

(٣) ربيع الأبرار ٤٥٥.

«لا تؤاخِ أحداً حتى تعاشره، وتتفقد موارد أمره ومصادره، فإذا استطبت العشرة، ورضيت الخبرة فآخه على: إقالة العثرة، والمواساة في العسرة. وكن كما قال أبو يزيد العدوي:

أبل الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسمن أمورهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي الديانة والتقى ... فبه اليدين قرير عين فاشدد
فإذا يزل، ولا محالة، زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فازدد»[1]

وإن من أكثر الأمور التي تساعد على احتمال زلل الإخوان هو تذكر خصال الخير التي فيهم، فيكون ذلك شافعاً ودافعاً للتغافر والنسيان.

وسماه التابعي الإمام ابن سيرين ظلماً عندما قال: «ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم وتكتم خيره»[2].

ويرسمها الشاعر مرسي السعدي بريشة شعره فيقول:

«أخ لي كأيام الحياة إخاؤه
تكون ألواناً عليّ خطوبها
إذا عبت منه خصلة فهجرته
دعتني إليه خصلة لا أعيبها»[3]

فما أقوى الإخاء بيننا لو راعينا هذه الحقوق وتذكرنا أننا

---

(١) ربيع الأبرار ٤٣٢ ـ ٤٣٣.
(٢) صفة الصفوة ٣/٢٤٥.
(٣) ربيع الأبرار ٤٣٧.

بشر نخطىء ونصيب، وخيرنا التوابون.

حفظ الله المؤمنين

لقد تكفّل الله تعالى بحفظ المؤمنين والدفاع عنهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ودلَّل على ذلك بقصص كثيرة في القرآن الكريم، ومن هذه المواضع ما ذكر في سورة الكهف من قصص في غالبها حفظ للمؤمنين والتي منها:

١ ـ قصة أصحاب الكهف:

فهؤلاء فتية آمنوا في عهد الدولة الرومانية والتي لم تكن تعتنق ديناً، بل كانت الوثنية هي دينها، وإذا بالله يهديهم للإيواء إلى كهف منعزل عن المدينة، ليس هروباً من الواقع، ولا من مقابلة الطغاة الظلمة، بل من أجل أن يستطيعوا أن يعبدوا الله من غير معوق، ولكن الله تعالى برحمته ضرب على آذانهم وأنامهم بما يقارب الثلاثة قرون، وهي الفترة التي انقضى فيها حكم الكفر والوثنية، وجاء الحكم الذي يوقر أتباع التوحيد ويحترمهم، لتثبت هذه القصة للأجيال المؤمنة القادمة دروساً كثيرة وعبر منها:

أ ـ أن الله تعالى يغير سنن الكون من أجل نصرة الفئة المؤمنة، إذا ما رأى منها صدقاً وإخلاصاً وبذلاً لكل الطاقة المدخرة في سبيل نصرة دينه، فقد أغرق الكرة الأرضية كلها من أجل دعاء مؤمن واحد هو نوح عليه السلام، عندما بذل كل ما لديه من طاقة مدخرة، وبذل كل سبب يستطيعه من أجل تبليغ

دين الله في الأرض. ولقد أوقف خاصية الإحراق في النار عندما قُذف إبراهيم عليه السلام فيها من قِبَل قومه، وذلك بعدما بذل كل ما يستطيع من أجل نشر دين الله تعالى.

ولقد جمّد البحر وفتح فيه طريقاً، وهو تغيير لنواميس الكون، من أجل نصرة الفئة المؤمنة، ولقد أوقف تعالى خاصية الإبصار في أعين الكفار، فأصبحت عيونهم مفتوحة لكنها لا تبصر عندما مرّ الرسول ﷺ من بينهم عندما كانوا يحاصرون بيته في مكة، ولقد رفع عيسى عليه السلام إليه حفظاً له عندما قام بما يملك من الطاقة.

ب - الدرس الثاني والذي نأخذه من هذه القصة هو أن الله تعالى قد يمد في عمر الباطل، ولكنه لا بد أن يزهق وتعود الدولة والملك لأصحاب الحق.

٢ - قصة الغلام:

فهذا الغلام يقتل على يد الخضر من غير سبب كما يتوهم موسى عليه السلام عندما اعترض على الخضر:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[1].

فأخبره بعد ذلك بأن هذا الغلام قد علم الله بعلمه للغيب، إنه عندما يكبر سيكون طاغية جباراً يعذب والديه، وبسبب صلاح الوالدين، أراد الله حفظهما بتخليصهما منه وهو غلام:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٤.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾[1].

وإن كان يبدو في ظاهر الأمر أنه طفل بريء، وإن كان هذا الأمر في ظاهره يحزن الوالدين، ولكنه خيراً لهما دون أن يعلمان، كذلك ما يحدث للقلة المؤمنة من البلاء والشدة والذل والهزيمة، ولكنه في علم الله إعداد لهم وصقل وقوة، وإظهار لظلم هؤلاء الطغاة للناس، حتى يقف الناس مع أصحاب الحق ضد أصحاب الباطل، وغيرها من الفوائد التي ليس هذا مكان لحصرها.

ولكن الذي يجب الالتفات له في هذه القصة أن الله تعالى من أجل صلاح الوالدين يحث ذلك الرجل الصالح لتخليصهما مما كان سيحدث لهما من أقرب الناس.

٣ ـ قصة الجدار:

وهي قصة فيها عبرة عظيمة، وفيها تبيين لحفظ الله لما يترك المؤمن من الذرية بعد موته، فهذا أحد المؤمنين يترك لابنيه كنزاً علامته حائط، ولكنهما صغيران لا يفقهان ذلك، وكادت العلامة أن تذهب بذهاب الحائط وسقوطه، فأرسل الله تعالى ذلك الرجل الصالح لإقامة الحائط من جديد، حتى يتمكن الغلامان من استخراج كنزهما بعد أن يبلغا أشدهما، لا من أجل شيء سوى أن أباهما كان صالحاً.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٨٠، ٨١.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1].

والقصة تُساق أيضاً لأولئك الذين يُهلكون أنفسهم من أجل الدنيا، فيعيشون حياةً هي أقرب إلى البهيمة منها إلى الإنسان، ففي الصباح عمل، والعصر عمل، والليل عمل، ولا وقت لديهم للجلوس مع الأطفال أو الزوجة أو الأصحاب، لا وقت إلا للمال، وإذا سألت أحدهم عما يفعل بنفسه ردّ عليك: «أريد تأمين مستقبل الأطفال» وكأنه هو الذي يَرزق.

أين القابلون للنصح

رحم الله ذلك العالم الذي قال له طالبه: لماذا قلّ الناصحون؟ فردّ عليه: وهل ترى من يقبل النصح؟

إن أحد مشاكلِ تخلُّف الأمة وابتعادها عن دينها وازدياد الجهل لا يكمن بقلة الوعّاظ والعلماء والمعلمين والدعاة، بل في قلة من يتقبل النصح ويسعى إليه.

ومن معاني النصيحة سد خلل الثوب، وقيل إنها مأخوذة من تصفية العسل، فنصحت العسل أي صفيته من الشمع، فالناصح هو من يحب الخير للآخرين ويسعى لسد ما يجده من خلل، ويصفي الذي يراه مما يجده فيه من الشوائب حتى ينقيه،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

ويجعل مهيأ لدخول الجنة، ويفترض في مثل هذا الإنسان أن يكون محبوباً، تقبل عليه النفوس، ولكن ثمة أسباب تحول دون قبول النصيحة وهي:

١ - الهوى الغالب في نفس المنصوح، يمنعه من قبول النصيحة حتى وإن اتضح له صواب النصيحة.

٢ - صغر الناصح يكون سبباً أحياناً في رد النصيحة ممن هو أكبر منه سناً.

٣ - الجاه والمنصب يحول أحياناً دون قبول النصيحة.

٤ - العلم بالدين يكون سبباً أحياناً عند البعض في رد النصيحة فيمن هم أقل منه علماً.

٥ - الجهل بحقيقة الضرر الذي يريد الناصح إزالته من المنصوح.

٦ - قلة الخبرة، وصغر السن يجعل المنصوح لا يتصور صحة النصحية حتى تزداد خبرته أو يكبر سنه فيدرك صواب النصيحة.

٧ - العداء الشخصي للناصح.

٨ - وقوع الناصح في بعض الأخطاء في طريقة النصح.

٩ - انعدام القدوة في الناصح.

١٠ - التكبر الذي يعيش فيه المنصوح بسبب تفوق بعرض من أعراض الدنيا.

١١ - عدم ملائمة وقت النصيحة للحالة النفسية للمنصوح.

هذه أسباب قليلة تجعل عدد القابلين للنصح يتزايد يوماً بعد يوم.

هل تتغير العادة

العادة هي ما تعوَّد عليه الإنسان بتكرر فعل شيء ما، وهذا الشيء إما أن يكون مطلوباً في الشرع أو منهياً عنه، أو أنه مما ينقص في كمال الإنسان ولكن لا إثم فيه..

١ - فالذي اعتاد قراءة القرآن، أو قيام الليل، أو صلاة الضحى وغيرها مما حثّ عليه الشرع، فهذا من أجمل العادات التي يتعوَّد عليها الإنسان، والخطورة فيها، أن يكون التعوُّد غالباً على التفاعل مع العبادة ذاتها والتأثر بها.

٢ - أما من اعتاد فعل المنهيات، فهذا على خطر كبير إذا لم يترك تلك العادات المهلِكات.

٣ - وذلك الذي اعتاد على أمر من الأمور التي ينتقص بها كمال الشخصية الإسلامية، كأن يتعود قضم الأظافر، أو نتف اللحية أو الشارب، أو تحريك طرف العين بطريقة اعتيادية، أو الحك في مكان من الجسم وغيرها من تلك العادات المنقِصة للشخصية. فهذه جميعها لا إثم فيها، ولكنها تؤثر كثيراً على قبول النصح أو التوجيه، لأن النفوس جُبلت على القبول من أصحاب الكمال.

والعادة بأصنافها الثلاثة إنما تُكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وخاصة الوالدين أو من يكبره من الإخوان، أو القدوات الذين يتعلق المرء بهم، ومن أعجب الأمور أن الإنسان يعتاد أحياناً على أمر دون أن يشعر، أو أنه يعتاد على أمر لا يرغب فيه، إما بسبب قوة المؤثر، أو طول العشرة، أو ضعف شخصية المتأثر، خاصة إذا كان التأثر هو من النوع الثاني والثالث.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل يمكن للعادة أن تتغير؟؟ فالذي يجيب بالنفي إنما دفعه ذلك لضعف همته، عدم تصوره لإمكانية حدوث ذلك، وإلا فإن الله تعالى يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

فهذا دليل على إمكانية التغير، إذا ما بذل الإنسان جهداً في التغيير، كما قيل: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم»[2] فالحلم عادة طيبة إنما تُكتسب بالتمرين المستمر عليها حتى تتأصل في النفس، وتكون عادة محكمة.

والذي يقول بغير ذلك فإنه يتهم الإسلام بعدم قدرته على التغيير. وهذا الصنف من الناس هم الذين تراهم يتكؤون على أمثلة عربية وأخرى شعبية لتبرير ما هم فيه من العادات غير المقبولة مثل قولهم: «من شبَّ على شيء شاب عليه» وغيرها من الأمثال.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) قولة مشهورة للصحابي الجليل أبو الدرداء ـ الزهد ١٣١٣ للإمام التميمي.

حقيقة الذكر

الذكر ما أطلق عليه هذا الاسم إلا لأنه يذكر المرء بالحقائق الكبرى، وهذا لا يمكن أن يتحقق دون أن يتفكر الإنسان بما يقول من أذكار، ولا يمكن للأذكار أن تؤثر ما لم يتم هذا التذكر، والتفكر بمعاني هذه الأذكار، فالأذكار من أنفع العلاجات النَفسية، والذي لا يشعر بالتغير النفسي عند الذكر فإنما يتلوها بلسانه لا بقلبه، يؤديها عادة وليس عبادة.

فرحتان

يتقلب الإنسان في حياته بين فرحتين: فرحة ناتجة عن انتصاره على نفسه، وفرحة ناتجة عن انتصار نفسه عليه، والأولى هي الفرحة الحقيقية التي تبقى وتؤثر في اعتدال النفس وراحتها، وعلو منزلة الإنسان وإقدامه على فعل معالي الأمور، وارتقائه المنازل العالية في الدنيا والآخرة، بينما الفرحة الثانية هي فرحة مزيفة مؤقتة ناتجة عن حصول المرء على ما دعته نفسه من الشهوات الدنيوية الزائلة. فما أن تنقضي هذه الشهوة. حتى يعود إليه الاضطراب والقلق والحيرة والضيق، وهذا الضيق ناتج عن ندمه لأنه اقترف ما يعارض الفطرة الإنسانية المعتدلة، أو أنه ناتج مما تدعوه إليه نفسه مما لا يقدر عليه من أمور الشهوات.

ومثال الفرحة الحقيقية ما جاء في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ: **«للصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين**

يلقى ربه»[1].

فالفرحة الأولى هي عند فطره، ذلك لأنه قد انتهى من مرحلة اختبر فيها نفسه، وحرمها مما تعودت أن تدعوه إليه من الطعام والنكاح والجدال وغيره، فهو يفرح لأنه انتصر على نفسه في ذلك الاختبار، ويفرح لأنه يعلم أن الله قد آجره أجراً عظيماً عندما باعد وجهه عن النار سبعين خريفاً كما صح في حديث آخر، والفرحة الأخرى عند لقائه بربه، وتلك هي الفرحة الكبرى حيث يجازى المرء بما قدّم في الدنيا.

والفرحة الحقيقية دائمة وليست مؤقتة، لأن المرء يشعر أنه أصبح سيداً لنفسه يوجهها حيث شاء مولاه وأمره به من الخير، بينما الفرحة المزيفة مؤقتة، لأن المرء فيها يشعر أنه عبد ذليل لنفسه توجهه هي حيث شاءت مما يغضب الله تعالى.

من علامات الإجابة

إن لاستجابة الدعاء علامات كثيرة، ذكرها العلماء في كتب الزهد، والتراجم، وغيرها من الكتب، ومن بين هذه العلامات الخفية تيسير الأمور وتذليلها قبل الإجابة، ومن الأمثلة في السيرة ما حدث في معركة بدر، فقد دعا النبي ﷺ بالنصر وباقي الصحابة رضي الله عنهم، وعندما قدر الله النصر ساق للمسلمين بعض علامات النصر قبل حدوث النصر وبداية المعركة ومن هذه العلامات:

---

(١) رواه الترمذي وإسناده صحيح (ص ج ص ٥١٨٣).

١ - غشى الصحابة النعاس، وآخذتهم إغفاءة ليست بالطويلة، ليعودوا إلى يقظتهم وهم بكامل قوتهم وقد ذهب عنهم تعب السفر.

٢ - أنزل الله عليهم مطراً ثبت به الأرض التي كانوا عليها بينما جعل الوحل في الأرض التي كان عليها الأعداء.

٣ - قلّل الكفار في أعين المسلمين، وكثّر المسلمين في أعين الكفار.

٤ - أنزل الله الملائكة مع المسلمين.

٥ - قتل في اللحظات الأولى من المعركة بعض من قادة الكفار.

هذه بعض العلامات التي سبقت النصر، كمؤشر لاستجابة الدعاء.

ومثالاً على ذلك الطالب الذي يدعو بالنجاح في الاختبار، فإن قدر الله نجاحاً لهذا الطالب تظهر لذلك علامات منها:

١ - أن تنفتح النفس للدراسة وتُقبل عليها.

٢ - تيسير الفهم لما يقرأ.

٣ - أن ينتهي من قراءة المقرر قبل فترة من الاختبار ويكون عنده وقت ليراجع مرة أخرى.

٤ - شعور بالثقة بالنفس.

٥ - التذلل لله تعالى وترك الحول والقوة بعد بذل الأسباب.

وإذا لم يقدِّر الله تعالى نجاحاً لذلك الطالب عكس هذه العلامات.

ومن علامات من استجاب الله لدعائه بالزواج من فتاة معينة:

١ - أن يجد مصدراً مالياً يترزق منه.

٢ - أن تقبل الفتاة ذلك الشاب ولا تعترض عليه.

٣ - ألا يشترط أهل الفتاة ما يصعب على الشاب تحقيقه.

٤ - أن تتيسر كل الأمور في إقامة الزواج دون أية عراقيل من جانب أهل الشاب أو الفتاة.

هذه بعض العلامات التي تحدث قبل الاستجابة، وهي كثيرة في كل أمر ندعو الله به، ليكون بشارة لمن أراد الله إجابته.

ألم المصيبة

ما من مخلوق إلا وله نصيب من البلاء يزيد أو ينقص على مقدار إيمانه، فالأنبياء هم أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل، والمؤمن أشد من الكافر في البلاء، لحكم كثيرة منها معرفة الصادق من الكاذب، لقوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ②﴾[1].

ولكن ألم المصيبة ولسعها يتفاوت بين إنسان وآخر، وصحيح أن سبب هذا التفاوت هو مقدار الإيمان بين هذا وذاك، ولكن تفصيل ذلك يجهله الكثير من الناس، وهو أن ألم المصيبة يزداد كلما نسي المبتلي القادر على حلها، وتعلق بالمخلوق، فعلى مقدار ما يتعلق قلبه بالمخلوق، وعلى مقدار نسيانه للقادر الحقيقي على حلها يكون ألم المصيبة. ولأن الأنبياء هم أكثر الناس إيماناً بالله، فهم أكثر الناس تعلقاً بالله، ويقيناً بقدرته على حل المصائب، ولهذا هم أقل الناس شعوراً بألم المصيبة.

تأخير العقوبة

في نهاية المحاورة التي تمت بين الحجاج وسعيد بن جبير والتي أمر الحجاج في نهايتها بإعدام مفسر القرآن، ضحك سعيد فقال الحجاج: ما الذي يضحكك؟ فرد عليه: «أتعجب من تطاولك على الله وصبر الله عليك».

فصبر الله ليس كصبر العبد، وانتقامه ليس كانتقامه فلا يشابهه المخلوق بشيء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2].

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

فإذا ما أذنب العبد، وأصرَّ على ذنبه، ولم يُصَب بعقوبة إلهية، لا يعني أن الله غافل عنه، أو أنه قد نسيه، إنما يؤخر عقوبته لحكمة يقدرها، وقد تكون العقوبة في الدنيا بعد حين وإن طالت المدة، أو أنه تعالى يؤخرها لليوم الآخر كما قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾[1].

وهذا التأخير في العقوبة يجعل البعض يتمادى في معاصيه ظاناً أنه على صواب، ولولا ذلك لعاقبه الله، أو أنه يظن أن معصيته لا تستحق العقوبة فيصر عليها ويزيد فيها فيقول في نفسه كما قال أولئك العصاة:

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[2].

فيرد عليهم الله بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

فالعقوبة للمذنب لا بد منها ولكن سنة الله تقتضي أحياناً أن يؤخرها لحكمة هو يعلمها، ولكنه لا ينسى المذنب أبداً فهو يمهل ولا يهمل.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٨.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٨.

الإسلام ينشىء الفرد متعلقاً بنهايته الحتمية، حتى لا ينتفش وينسى ما خُلق من أجله، وحتى يكون ذلك دافعاً له دائماً لمزيد من العمل الصالح، كلما تذكر هاذم اللذات، والذي يتتبع أحاديث الأذكار يلحظ ذكر هاذم اللذات في كل جزء من اليوم. بل منذ اللحظة الأولى من الاستيقاظ حتى اللحظة الأخيرة قبل النوم، فالرسول ﷺ يعلّمنا أن نقول إذا أصبحنا: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**»[1] ويعلّمنا إذا ركبنا الدابة أن نقول: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

ومنقلبون معناها راجعون إليه سبحانه، وهو طرف خفي لذكر الموت. ثم يعلّمنا إذا أوينا إلى فراشنا قبل النوم أن نقول: «**باسمك اللهم أحيا وأموت**... الحديث»[3].

وبين دعاء الصباح ودعاء النوم أذكار كثيرة فيها ذكر هاذم اللذات، حتى يتعلق المؤمن بذكر الموت الذي لا بد منه فيعيش حياة ربانية، يتعلق خلالها بخالق السمٰوات والأرض ذليلاً له، محققاً عبوديته له في الأرض، ليس بغافل عن سبب وجوده، وليس مقلداً للبهائم في عيشهم. بل يعيش بإنسانيته الكاملة،

---

(١) البخاري ٩٦/١١.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) البخاري ٩٦/١١.

مدركاً أن الوقت محدود والدقائق معدودة، وكل ساعة تمضي لا تعود حتى يوم القيامة، فالرابح من استغل هذه الأوقات قبل نهايته، والخاسر هو الذي اتبع هواه، وتمنى على الله الأماني، وعاش عبداً لشهوته ودنياه، ونسي عمره المحدود عندما نسي هاذم اللذات، فيتفاجأ باللحظة الأخيرة من عمره دون أن يُعد لها ما ينبغي أن يُعد...

وقفات من مأساة الكويت

١ ـ الحنين للوطن:

عندما حطّت قدماي أرض الإمارات العربية، في السادس والعشرين من الشهر الثامن لعام ١٩٩٠ الميلادي، الموافق لليوم الخامس والعشرين من أيام الاجتياح العراقي لأراضي الكويت، لم تغمرني السعادة كما كانت عندما تطأ قدمي أرض مطار الكويت، وذلك لإحساسي أنني لم أعد هذه المرة بعد ذلك الغياب الطويل خارج البلد للأرض التي ترعرعت فيها في طفولتي وصباي وشبابي، إنما هي دار هجرة، وسكن مؤقت ريثما تنجلي الفتنة وتعود الدار لأهلها. لم يكن ذلك التفكير نتاج معاملة سيئة، حاشا لله أن يُتهم أهل الإمارات بذلك، بل إنهم قدّموا أكثر من الواجب، وجهّزوا كل وسائل الترفيه لإخوانهم من الشعب الكويتي، حتى لا يشعروهم بأي نوع من الفرق، ولكنه وليد الحنين للوطن ولمن فيه من الأخيار، ولأول مرة في حياتي أشعر شعور الصحابة رضي الله عنهم حينما

هاجروا من مكة إلى المدينة، ومرّ عليهم وهم في إحدى جلساتهم هذا الخاطر الذي انتابني، فأخذ بعضهم بالبكاء، وبعضهم بالشعر، وهم يتذكرون البيوت التي تعبث بها الرياح، وهي خاوية على عروشها بعد أن سُلب ما فيها من قبل قريش، وتذكروا الزوجات والأبناء، وكيف يُعامَلون معاملة الذل والإهانة بلا معيل سوى الله تعالى. وتذكروا ابتسامات الأطفال ودعاباتهم، وكيف هم الآن بأثواب ممزقة بالية ليس لهم الجديد من الثياب، ولا اللذيذ من الطعام.

٢ ـ الدنيا دار رحيل:

كلما وقعت عيناي على شيء من أمور الدنيا، من التي جهزها الإخوة الإماراتيين لنا، مثل: الشقة والأثاث والتجهيزات الحديثة، لا أسعد لذلك أبداً لشعوري أن ذلك ليس ملكاً لنا، وأنه مؤقت حتى انقضاء هذا البلاء.

ولكني عدت إلى نفسي لأسألها: وأي شيء في هذه الدنيا ملك لنا؟ وأي شيء غير مؤقت على هذه الأرض؟ شعرت حينها بتفاهة الدنيا، وإنها حقاً كما قال عنها النبي ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[(١)]. فهذه الدنيا بكل ما فيها إنما هي دار رحيل وليس دار إقامة، كل شيء فيها مؤقت، حتى انقضاء أيامها والعودة للوطن الأصيل، فإما جنة وإما نار والعياذ بالله، وإذا كنا قد رحلنا من

---

(١) الترمذي بإسناد حسن (جامع الأصول ٢٦٠٨).

بلدنا الذي وُلدنا فيها إلى أرض مؤقتة نتصبر فيها ونصابر حتى انتهاء هذه الغمة، فإن كل إنسان على هذه الأرض إنما هو مهاجر من هذا الطين الأرضي الذي خُلق منه إلى العمود الفقري في ظهر أبيه إلى رحم أمه ثم إلى الدنيا، فإذا كانت كل الأماكن التي رحل إليها كانت مؤقتة، فكذلك الدنيا فهي دار رحيل مؤقتة لا يلبث أن يعود من حيث أتى، ليلاقي الله بعد ذلك فيوفيه حسابه، ويسكنه أرض الخلود التي لا رحيل بعدها.

٣ ـ الإهلاك أو التعذيب:

لقد قرأتها كثيراً، ومررت عليها المرات الكثيرة ولكنها أبداً لم تهزني من كياني أو تحرك مشاعري، وتجعلني أعيش معها كأنها ماثلة أمامي كل لحظة إلا عندما حلّ بنا هذا البلاء العظيم، وتحطم في لحظات ما كان يساوي ملايين الدولارات، وتهشّم كل مظهر من مظاهر المدنية، وسُرقت البنوك، والكثير من المحال التجارية، وسُرقت سيارات شركات بيع السيارات، وفشى النهب، ودبّ الذعر، وانتُزع الأمن وحلّ مكانه الخوف ونقصت المعونة، وتجمدت الأموال، وسقط مئات القتلى، ومُنع التجول، وخيم شبح الموت على أهل الكويت عندما جاءت آلاف العساكر الأجنبية، لحماية المسلمين من المسلمين، وهم في حقيقة الأمر جاؤوا لحماية مصالحهم، وأصبح أغنياء تلك البلد فقراء، وأعزّتها أذلة في بلادهم أو في البلاد الأخرى، وتشرّد ما يزيد على الثلاثمائة ألف مواطن في بقاع الأرض. . كانت تلك الآية التي حركت مشاعري وكأني أقرأها أول مرة هي قوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾(١).

فما من قرية على هذه الأرض إلا وسيعذبها الله تعالى عذاباً شديداً أو يهلكها تماماً، بسبب معاصي العباد وابتعادهم عن طريق الله تعالى.

٥ - شدة تحمُّل المهانة:

تذكرت فيما تذكرت قول رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول عن النبي ﷺ: «هذا كما قال العرب: سمِّن كلبك يأكلك» هذه العبارة كم كان وقعها على النبي ﷺ عندما سمعها، لم أشعر بذلك إلا عندما حدثت الأزمة، وتصورت أن البعض سيقال لهم هذه الكلمة بصيغ أخرى فيها رائحة المن، أو الشماتة، وقد قيلت من البعض فعلاً.

وسيتألم السامعون لهذه الكلمة أشد الألم، خاصة وهم يتذكرون العز والكرامة التي كانوا ينعمون فيها في بلادهم، هكذا كان تحمل النبي ﷺ لألوان المهانة التي لاقاها من المنافقين وغيرهم.

٦ - لماذا الابتلاء:

يبتلينا الله سبحانه وتعالى لأسباب ثلاثة رئيسة:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

أ ـ **الذنوب**: إذ يقول النبي ﷺ: «**لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**» قال: وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾[1].

ويقول الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[2].

وكل اقتراف لما نهى الله عنه ذنب يؤدي إلى البلاء.

ب ـ **الظلم**: سواءاً كان في القوانين الحائدة عما أنزل الله، أو بين الناس بعضهم لبعض، أو ما يجنيه الإنسان على نفسه من المعاصي، فكل هذا ظلم نهى الله عنه، ولقد حرّمه سبحانه وتعالى على نفسه فقال في الحديث القدسي: «**إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا**».

ويقول الله تعالى مبيناً أن الظلم سبب من أسباب الإهلاك:

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[3].

كما أن دعوة المظلوم مستجابة لا تُرد حتى وإن كان المظلوم كافراً، كما جاء في الكثير من الأحاديث والتي منها قول النبي ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها**

---

(١) رواه الترمذي بإسناد حسن (ص ج ص ٧٧٣٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٣.

شرارة»[1].

ج - نسيان الذكر: إذ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2].

ونسيان الذكر هو نسيان العمل الذي أُمروا به من الحكم بما أنزل الله، والابتعاد عما نهى الله عنه من الربى والزنى وشرب الخمر وظلم الناس ونشر الفاحشة، سواءاً بالأفلام الخليعة أو بالإعلام الصحفي والإذاعي والتلفزيوني الرخيص، الذي لا يحث إلا على إثارة الشهوات، ونسيان الصلاة والصيام والزكاة التي هي حق الفقراء، فكم من أثريائنا لا ينفق فلساً واحداً من أمواله التي فتنه الله بها، كل هذا صور من صور نسيان الذكر.

وتأمل التدرج المعجز، والذي انطبق على شعب وطني وشعوب كثيرة ابتلاها الله تعالى بسبب نسيان الذكر، والتي يكون أولها أن يفتح الله تعالى عليهم أبواب الرزق من كل مكان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ فلا يوجد نوع ولا لون من ألوان الطعام إلا وقد مُلئت به الأسواق، من جميع أقطار العالم، وتدر عليهم الأموال من كل مكان، فمال يأتي من البترول لا يعرفون الطرق المثلى لإنفاقه، ومال يأتي من

(١) رواه الحاكم بإسناد صحيح (الصحيحة ٨٧١).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

الاستثمارات، ومال يأتي من التجارة العامة، ومال يأتي من المصنوعات، وهكذا من كل مكان. وتأتي المرحلة الثانية قبل الابتلاء وهي الفرح والغرور والاستعلاء والفخر الشديد المصحوب بنسيان المنعم بسبب هذه النعم والأموال الكثيرة المتساقطة عليهم، حتى أدى هذا الفرح إلى اقتراف المزيد من المعاصي، والمزيد من الإعراض عن الخط المستقيم، فخرجت النساء من خدرهن، خلعن ثوب الحياء وحاربن الله تعالى باحتقار الحجاب والمحجبات، وأصروا على الربى وآووا كل محارب للّه، يكتب ما يشاء في الصحافة، ويهاجم الإسلام بحجة مهاجمة التصرفات الخاطئة للمسلمين، ولم يغضب أصحاب القرار لذلك، بل غضبوا عندما أُهين أصحاب القرار من البشر، وضايقوا أصحاب الدين، وحرموهم من الكثير من المناصب خوفاً من إرهابهم وتطرفهم، قرّبوا كل دجال محارب للّه ورسوله، فاسد، صاحب فكر أعوج ومنهج معوج. فكيف جاء الابتلاء؟

بغتة، أي فجأة من حيث لم يتوقعوا، ولم يأت بتدرج إنما جاء مفاجئاً، حتى أن الكثيرين يقولون: حدث كل شيء ونحسبه حلماً وليس واقعاً، ففي الساعة الثانية قبل الفجر تم الاجتياح، وجميع الناس نائمون في أمان دون أي شيء يدل على حدوث ما يخل بالأمن، وفي الساعات الأولى من الصباح استيقظ الناس على أصوات الطائرات المقاتلة، والمدافع والدبابات، وإذا بالبلد كله يسقط في ساعات معدودة، جيش البعث مسيطر على كل مكان، والحكومة وأكثير من شعبها خارج الوطن.

وكانت المباغتة في كل شيء في الزمان وفي المكان وحتى في الشخص المهاجم الذي لم يتوقعه أحد.

وجاء بعد ذلك الإبلاس ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي هالكون نادمون على ما كان منهم، ولا ينفع هذا الندم إلا إذا اصطحب بتوبة نصوح حتى يرتفع البلاء. وهذا لا يمنع أن يكون أهل الخير أكثر، والمحبون للخير أكثر ولكن العقوبة تنزل إذا ظهر الخبث وزاد، حتى وإن كان من فئة قليلة(*).

رسالة وجواب

جاءني في الليل وسلّمني رسالة منه وفي عينيه أشياء تكاد أن تنطق، وما أحببت إحراجه، فسلّم مودعاً. فأخذت الرسالة وفتحتها وإذا بها:

أخي أبا بلال(**) حفظه الله ورعاه.

أحييك بتحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية وشوق وتقدير، تحية من إنسان رأى فيك سمات الأخوة الصادقة، تحية لك مع إشراق شمس كل يوم.

أخي الحبيب: بمداد الوداد، وبدموع الأمل، أسكب لك

(*) لقد عادت الكويت محررة لأسباب كثيرة على رأسها (عمل الخير) الذي امتاز به أهل الكويت ودعاء اليتامى والفقراء ممن كانت الكويت تكفلهم في شتى بقاع الأرض.

(**) كنت بالسابق أكنى بأبي بلال قبل مجيء ولدي خلاد.

عبراتي الباسمة في عبارات صادقة، لعلك تسمعها بقلبك، وتصغي لها بجنانك.

شيخي الفاضل: أقدم اعتذاري عن الكلمة التي ذكرتها في الهاتف وأنا أتحدث إليك، وقد أسميتها أنت من كلمات جاهلية القرن العشرين(*) فما كان ينبغي لمثلي أن ينطق بها أمامك، فأرجو المعذرة، ووالله لقد راجعت نفسي بعد المكالمة، فلم أرتح ولم يرضَ ضميري حتى أقدم لك اعتذاري فأرجو منك المسامحة والصفح.

أخي العزيز: ربما سمعت محاضرات عن الحب في الله وقرأت كتباً عن الحب في الله، ولكنني لم أشعر بها بدرجة ما يذكر إلا بعد أن تعرفت عليك، فجزاك الله عني خير الجزاء.

شيخي الكريم: لي طلب أوده منك: أن تدعو الله لي في ظهر الغيب بالثبات على هذا الدين، ومع هذه الجماعة الطيبة التي أتمنى أن أكون خادماً فيها لأكبر واحد فيهم إلى أصغر شخص فيهم فادع لي بذلك.

أخوك المذنب....

جواب الرسالة:

أخي الحبيب: جزاك الله خيراً على كلماتك الرقيقة، النابعة من قلب ذي إحساس ورقة في الشعور، ولا أراني أستحق الثناء الذي

(*) كان قد قال لي كلمة لا أذكرها من كلمات العوام الدارجة، فرددت عليه مازحاً إنها من كلمات جاهلية القرن العشرين.

ذكرته لي في رسالتك فالله أعلم بالقلوب، وكل ما نسأله هو الثبات على هذا الأمر حتى نلاقيه، غير مبدِّلين وحائدين عن طريق الحق.

فوالله يا أخي الحبيب إن القلب ليرتجف، ويكاد أن ينخلع من مكانه، عند سماع تساقط من كانوا معنا في طريق الدعوة، لزينة من زينات الدنيا تتراءى أمام أعينهم، فيبيعوا دينهم وثباتهم، بعرض من الدنيا قليل.

«اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

أخي الحبيب: إن من أبجديات الحب في الله أن يكون الصدر سالماً نقياً على إخوانه، لا يؤول كلماتهم، ويلتمس لهم العذر دائماً ويتسابق إلى التغافر لا إلى التعاتب.

فقلب الداعية لو شغله بالعتاب والحساسية والزعل، والشك، وظن السوء بإخوانه لما وجد متسعاً لدعوة الآخرين ومحبتهم إذ أن القلب الذي فرغ من الحب لا يمكن أن ينجح في دعوة الآخرين.

أخي الحبيب: والله إني نسيت تماماً ما قلته لك في الهاتف، ولا أتذكر حتى الكلمة التي قلتها، لأنني إنما قلتها لك من باب الممازحة، التي أرجو أن أتقرب بها إلى قلبك فقط.. فأرجو أن تعذرني إن كنت قد تسببت في جرحك دون قصد مني، وكم يزلّ لسان الإنسان دون أن يشعر..

وجزاك الله خيراً على كلماتك الرقيقة وإحساسك المرهف، وعسى الله أن يثبتنا وإياك على طريق الحق، وأن يختم

بالصالحات أعمالنا، إنه هو السميع المجيب.

أخوك المحب

ابو بلال

لكل مقام مقال..

المقامات تختلف، وتبعاً لذلك تختلف المقالات، فلكل مقام مقال يناسبه، ولا يمكن أن نستخدم أسلوباً واحداً في النهي أو الأمر بالمعروف في جميع الحالات، ومع جميع الناس، دون تمييز بين الصغير والكبير والمرأة والرجل والجاهل والعالِم والفقير والغني والمتعلّم والأمي. وغيرهم من أصناف المجتمعات، وأسوق للتدليل ثلاث قصص:

ـ القصة الأولى:

بعد انتهائي من الصلاة في أحد مساجد الشارقة عام ١٩٩١ رأيت طفلاً خارج المسجد، يمسك بعصا يضرب بها سعف إحدى النخلات المزروعة حول المسجد، فنهيته عن ضربها فابتعد، فعندما بعدت عنه عاد إلى ضربها، فعدت إليه وقلت له: يا هذا هل تحب أن تُضرب بهذه العصا؟ فتبسّم قائلاً: لا، فقلت له: كذلك فإن هذه النخلة لا تحب أن يضربها أحد. فتبسّم بحياء وابتعد عن النخلة وما عاد لضربها. فكان هذا الأسلوب أدعى لنهيه من الأسلوب المجرّد من هذا المثال الذي يتناسب مع سنه ونمط تفكيره.

- القصة الثانية:

أثناء صلاتي خلف إمام في أحد المساجد لاحظت خطأ في قراءة ذلك الإمام، وكان كبيراً في السن، ويبدو أنه ليس لديه علم، وهذا النوع من الناس حسب تجربتي من الصعب عليهم أن يتقبلوا النصح، فتفكرت بطريقة أنصحه فيها كي لا يعود لنفس الخطأ، وخاصة أنني لا تربطني به صلة قديمة، ففتحت المصحف، وذهبت له قائلاً: يا شيخ أنا طالب علم، أريد أن أتعلّم ولقد سمعتك في أثناء قراءتك تقرأ الآية الفلانية بالطريقة الفلانية، ولقد تعودت قراءتها منذ صغري بطريقة مخالفة لقراءتك، فهل من الممكن أن ترشدني إلى الطريقة الصحيحة؟ فأدرك الرجل خطأه وقال لي: بل أنا أخطأت في قراءتي وزلّ لساني، فشكرته على هذا ودعوت له بخير.

- القصة الثالثة:

قيل لي أن المؤذن الفلاني صاحب بدعة، ولم أعبأ بذلك لأنني لم ألاحظ شيئاً من ذلك، وفي ذات يوم سمعته يؤذن ثم يضيف بعد الأذان الصلوات على النبي ﷺ، يرفع بها صوته بالميكرفون فدخلت المسجد، وبعد صلاة السنة تقدمت إليه وأثنيت على صوته الجميل، وكان ذا صوت جميل، ودعوت له بالخير، وبعد ذلك قلت له: لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر في أحد الأحاديث الصلاة عليه عقب الأذان وغيره من هذه الأمور، ولكن ليس هنا داع أن يرفع بها الصوت في الميكرفون حتى لا يظن العوام الذين يسمعون الأذان أن ذلك جزء من الأذان. فهزّ رأسه بالموافقة، فشكرته على ذلك.

وأظن والله أعلم أن المقدمة التي كانت تحوي الثناء على صوته أثر في قبوله للنصيحة.

بعض قصص التوابين

إن هذه الأمة لا تقود العالم إلا إذا اتصفت ببعض المواصفات، والتي إذا ما تخلت عنها جعلها الله تعالى أذل أمة وأحقرها وأضعفها وأجهلها وأكثرها تخلفاً، وهذا هو الواقع الذي نعيش فيه.

وهذه المواصفات ليست بالغامضة لكي يتعب الناس بفهمها واستخراجها، وليست محفوظة لطبقة من الناس دون الأخرى، بل هي منشورة معروفة مشهورة، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم في آيات متعددة، من أبرزها ثلاث صفات متضمنة قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وسبب أهمية هذه الصفات في قيادة العالم، أن المجتمعات إنما تتحطم بسبب انتشار الفساد فيها والظلم والبعد عن الله تعالى، وما لم يحمل أفراد الأمة مواصفات القيادة ليقوموا بواجبهم بالأمر بالمعروف وبالنهي عن كل منكر يرونه من كل فرد في المجتمع، فإن الفساد والظلم والجهل يعم،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

ويزداد التخلف والانحدار في ذيل قائمة الأمم. وهداية أفراد المجتمع وتوبتهم إنما يتم غالبها بالقيام بعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير انتظار للنتائج، لأن أثر الكلمة الطيبة النابعة من قلب مخلص لا بد وأن تؤثر، ومعظم قصص التائبين تدل على تأثر التائبين بهذه الكلمة الطيبة. ومن هذه القصص:

١ - جابي الحافلة:

كان رجلاً عامياً يعيش من أجل الدنيا والدينار، ولا يكترث لآخرته، وكان يعمل جابياً في المواصلات التابعة للنقل العام، فعندما تقدم من أحد الركاب من شباب الدعوة الإسلامية وسأله الحساب، ردّ عليه بدعابة «الحساب يوم الحساب» وأعطاه ثمن التذكرة، ومرت الشهور، وبينما كان ذلك الشاب يصلي في أحد المساجد، وإذا برجل كث اللحية يبدو على وجهه آثار التقوى والصلاح ينكب عليه يقبله ويقول له: ألا تتذكرني؟ فيرد عليه الشاب معتذراً: «لا أتذكرك». فقال له: أنا الجابي الذي قلت لي عندما قطعت لك التذكرة في ذلك اليوم: «الحساب يوم الحساب» لقد أثرت فيّ كلمتك هذه، وأخذت تتفاعل في نفسي وجعلتني أفكر كثيراً بهذا اليوم العظيم، حتى كانت سبباً في هدايتي، وبحثت عنك في كل مكان حتى وجدتك، فبارك له الشاب بالهداية، وكانا أخوين في الله.

٢ - الشاب المستهتر:

كان (ح) شاباً مائعاً، مستهتراً، يعبد ذاته مضيعاً وقته

بتصفيف الشعر، وتعديل غطاء الرأس أمام المرآة، والتحدث بالهاتف مع الفتيات، همه اقتناء أفخر العطور، وصيد الفتيات، والتباهي بالملابس الجديدة الأنيقة. وليس له من هدف في الدنيا غير ذلك، وكان أحد أقاربه من كبار السن رجلاً فاضلاً من أهل الخير المشهورين بصلاحه، وكان لهذا الشاب زميل على شاكلته، ولكنه كان يقول له دوماً: «كيف تكون كذلك وقريبك فلان مشهور بالصلاح والخير»؟ ومضت سنوات، ورنين هذه الكلمات وإن خرجت من شاب مستهتر مثله يدق في قلبه، حتى وقف مع نفسه في لحظة صفاء يعاتبها على هذا الانزلاق، نادماً على ذلك الضياع فقرر التوبة والرجوع إلى الله، ولزم المسجد وأصبح من عماره.

ـ الطفلة الداعية:

طفلة لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات رأت امرأة متبرجة، قد نفشت شعرها، ووضعت المساحيق والعطور فقالت لها ببراءة الطفولة: «إنك ستدخلين النار»، فردت عليها المتبرجة تداعبها: «ولماذا أدخل النار»؟ فردت عليها دون تردد: «لأنك لم تلبسي الحجاب».

استقبلت هذه المرأة «كلمات الطفلة» وكأنها صاعقة لم تتوقعها أبداً، فعندما يتردد الكبار بالنهي عن المنكر، ويجري الله كلمات الحق على لسان طفلة لا يتجاوز عمرها الأربع سنوات، فإن في ذلك عبرة لأولي الألباب، لم تعلق تلك المرأة على كلمات الطفلة، ولم تنسها في نفس الوقت، بل ظلت كلمات

الطفلة توخزها، وتحرك الشعور النائم فيها، حتى مضت بعض الشهور، وإذا بالمرأة المتبرجة تلبس الحجاب، وتبحث عن الطفلة حتى وجدتها، فإذا بها تسألها: «هل أدخل الجنة الآن»؟ فقالت لها الطفلة: «نعم». فهل تحرك فينا همة الطفلة في الدعوة نحن معشر الكبار همة الدعوة فنتحرك لننتشل من شاء الله من العباد من الوحل إلى طريق النور.

لماذا تتأخر نهاية الطغاة؟

سبحان من بيده نواصي العباد، ومن بيده ملكوت السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير، وسبحان الذي بيده الملك يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء. يتحير المرء عندما ينظر في سنن الله تعالى وهو الذي حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرماً، وهو القادر على كل شيء قدير، كيف يؤخر نهاية الظلم والطغيان والطغاة؟؟!!

وعندما تتلى آيات القرآن الكريم وما بها من قصص لنهاية الطغاة والأمم الظالمة، يدرك حكم الله الكثيرة في هذا التأخير، فلا يملك سوى أن يطأطيء رأسه لحكمه سبحانه وتعالى وهو يقول: «اللهم لا اعتراض لحكمك».

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

قصة فرعون:

من هذه القصص قصة فرعون الذي أفرط وطغى، وبلغ قمة طغيانه عندما ادعى الربوبية والألوهية فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[2].

وقال لوزيره هامان:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[3].

وما كان يسمح أن يبقى ولد في بني إسرائيل إلا قتله، ويبقي النساء فقط. فلماذا أخر الله نهايته مع كل هذا الطغيان؟!

وعند التأمل يلاحظ المرء عدة أمور منها:

١ ـ لأنه كلما زاد طغيانه كان ذلك تهيئة لقبول رسالة موسى المنقذة.

٢ ـ وأخر نهاية فرعون لأن الشعب كان ما يزال يمجد فرعون ويفضل حياة العبودية.

٣ ـ وأخر نهايته لأن الشعب لم تكن له قيادة تقوده.

٤ ـ وأخر نهايته لأن راية الحق لم يوجد من يحملها.

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

قصة التيه:

ونجد في قصة التيه العجب العجاب، فعندما قضى الله على فرعون ومن معه بقيادة موسى عليه السلام، وعبر موسى ومن معه البحر، وذهب لميعاد ربه عز وجل وعاد، رأى قومه يعبدون العجلِ، وبعد ما كان من العفو عنهم، أمرهم رسولهم أن يدخلوا القرية المقدسة فرفضوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[1].

وقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

فعاقبهم الله تعالى نتيجة هذا الرفض بالتيه في الصحراء أربعين عاماً جزاءاً لمعصيتهم، فلماذا أخّر الله تعالى هذا النصر، وهو يعلم سبحانه وتعالى أن في تلك القرية قوماً جبارين وهم العمالقة، وكانوا مفسدين جبابرة ولا يتبعون رسالة الحق، بينما بنو إسرائيل كانوا هم أتباع الحق، وأتباع موسى عليه السلام، فلماذا يؤخر الله الفتح على أصحاب التوحيد، أصحاب الحق، ويزيد في تمكين أصحاب الباطل والفساد والهوى؟

ونقف أيضاً وقفة إيمانية مع هذه السنة العجيبة لنتفحص أسباب تأخير رفع هذا البلاء، وتأخير نصر المؤمنين، والتي من أهمها:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

١ - حتى ينقل الله بني إسرائيل من حياة الترف إلى حياة الخشونة، ذلك الترف الذي كانوا يعيشونه وهم يتنقلون بين قصور الفراعنة، ويعيشون تلك الحياة المترفة.

٢ - حتى ينقلهم الله تعالى من حياة الاتكال على الغير بحمايتهم، إلى الاعتماد بحماية أنفسهم على أنفسهم، ففي وسط الصحراء لا توجد حضارة الفراعنة التي فيها وسائل الحرب المتطورة والعربات المجرورة بالخيول، وغيرها من وسائل الحرب التي كانت متطورة جداً آنذاك، وهنا يضطر بنو إسرائيل لاختراع الوسائل التي تعينهم في حماية أنفسهم من قطّاع الطريق، والقبائل التي تغير بين الفينة والأخرى.

٣ - حتى يقاسوا بما يجدوا من برد الصحراء، وحرارة شمس الصحراء، وطبيعة الصحراء القاسية، ومن هذه القسوة يشعرون بآلام الغير، وبضرورة تغيير الحال، لأن الذي لا يقاسي الآلام لا يمكن أن يبدأ بالإحساس بضرورة التغيير الاجتماعي، ما دام كل شيء يجيء إليه دون مشقة.

٤ - حتى يشعروا بألم البلاء فيلجأوا للّه تعالى مستغفرين ومتضرعين.

٥ - حتى ينشأ جيل جديد لا يوجد فيه ذرة من التعلق بإنجازات الطغاة وأعوانهم، جيل لا يؤمن إلا

بالله تعالى ولا معبود بحق سواه.

مأساتنا المعاصرة:

وعندما نقيس هذه القصص القرآنية بواقعنا المعاصر نجد تشابهاً عجيباً في هذه السنن، ونكرر السؤال نفسه: لماذا أخّر الله تعالى حتى الآن زوال الطغاة الذين يجثمون على صدورنا، نجد أن أسباب ذلك ظاهرة لا تحتاج إلى ذكاء لاستخراجها. فمن هذه الأسباب:

١ - لأنه ما زال الكثيرون منا يصفق للطغاة، ويصدقهم بادعاءاتهم، مع أن تاريخهم مليء بالكذب والدماء والخيانة، وبمجرد أن رفع هؤلاء الطغاة راية الإسلام أو راية الوطنية، أو راية العروبة صدقهم الكثيرون وهتفوا بحياتهم.

٢ - ما زلنا كمسلمين لا يحب بعضنا الآخر، بل إن البغض هو الغالب، والأحقاد تقطعنا أوصالاً.

٣ - ما زالت الإقليميات التي وضعها المستعمر البغيض هي التي تنخر في عظامنا، وتسري في دمائنا، وهي المحور الذي يدور حوله ولاؤنا أو براؤنا، وهي الراية التي نرفعها في حلول قضايانا.

٤ - ما زلنا فاقدي الإحساس بعضنا ببعض، فالأمة

(*) ذلك كان أثناء احتلال العراق للكويت، وما حدث من خلاف بين الدول العربية في ذلك.

متقطعة ولا أحد يحس بالآخر، والدماء المسلمة هي وحدها التي تنزف بالعالم، دون أن يستشعر المسلمون بدماء بعضهم البعض، بل إن إحساسنا غدا إقليمياً، فالبعض يشعرون بالدم العراقي(*) الذي ينزف فقط، دون شعورهم بالدم الكويتي الذي ينزف، والبعض الآخر يشعر بالعكس وهكذا في كل شيء. وما عدنا ذلك الجسد الذي قال عنه النبي ﷺ: «**مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١) أو كما قال: «**كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»(٢) بل أصبح حائطاً متهدماً لا يرص بعضه بعضاً، كما كنا من قبل.

٥ ـ تخلينا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك الصفة التي جعلتنا قادة للعالم إذ قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فأول صفة رشحتنا لقيادة العالم هي صفة الإنكار والأمر بالمعروف، أما الآن فكل صاحب منكر لا يجد من يوقف منكره، وهذا هو السبب الذي فرخ الكثير من

(*) ذلك كان أثناء احتلال العراق للكويت، وما حدث من خلاف بين الدول العربية في ذلك.

(١) البخاري ٣٦٦/١٠ (وهو جزء من الحديث).

(٢) البخاري ٧١/٥.

الطغاة في حياتنا المعاصرة: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[1] والرسول ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[2].

٦ - لا توجد فينا همة طلب العلم، لذلك فشا فينا الجهل وأصبح هو السمة الغالبة على مجتمعاتنا، وضمر الوعي فاستغل الطغاة هذا الجهل وسامونا سوء العذاب، واستغل أعداء الأمة هذا الجهل فقادونا كما تُقاد النعاج ليس لها إلا المعمعة.

٧ - الانشغال الكبير في الدنيا، والجري وراءها، ونسيان الهدف الأسمى لوجودنا على هذه الأرض، وهو عبادة الله تعالى، إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[3].

فعبدنا الأسباب وتركنا رب هذه الأسباب. فأصابنا الضعف نتيجة هذا الانشغال. وأصبح الكثير منا كالأنعام بل أضل، إلا من رحم الله.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[4].

٨ - قلة التقرب إلى الله تعالى، والكثير من فضلائنا لا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٢) مسلم (المختصر ٣٤).
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.

يزيدون على ما افترض عليهم من الصلوات الخمس والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت، ويتركون القربات المسببة لمحبة الله تعالى لقوله في الحديث القدسي: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»**[1]. لذلك قلّ العنصر الذي يحبه الله تعالى فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها. وزاد الدعاء وتوقفت الإجابة، بسبب قلة التقرب وكثرة المعاصي، وانتفى في الكثير من الأحيان تحقق نتائج محبة الله **«ما إن سألني أعطيته»**[2].

٩ ـ اختلاف الدعاة فيما بينهم ـ فهؤلاء هم أمل الأمة وهم المرشحون لإنقاذ هذه الأمة من هذا الانحدار، ومع ذلك نجد هذه الفرقة بينهم، وهذا التنافر والتشاغل.

١٠ ـ ضعف الغيرة على محارم الله تعالى، فالكثيرون يقولون: نفسي نفسي، لا شأن لي بغيري.

هذه هي بعض أسباب تأخر رفع البلاء في المصائب التي تتوالى على المسلمين، وما لم نتجه اتجاهاً حقيقياً نحو منهج الله تعالى فكراً وتطبيقاً، ونتخلص من هذا الضعف الذي يعترينا، ونتوب إلى الله توبة نصوحاً، فإن الله لا يمكن أن يرفع عنا هذا

---

(١) البخاري ٢١/١١.

(٢) البخاري ٢١/١١.

البلاء، ولقد اقتضت حكمة ربنا ذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

حرب الله وحرب البشر

كم يتحدى هذا الإنسان خالقه، ويزداد كبرياءاً عندما ينعم الله عليه بالنعم الوفيرة، حتى يظن أنه لولا استحقاقه لهذه النعم لما أنعم عليه بها، ويزداد كبرياءً حتى ينسب هذه النعم له ولخبرته وذكائه، بل يصل به لحال أن يكفر بالله تعالى ولا يؤمن إلا بذاته، حتى يصل إلى قمة الكبرياء فيتحدى الله تعالى ويظن بأن قوته أكبر من قوة الله تعالى، أو أنه ينسى قوة الله تعالى وهو في نشوة الفرح بما يجد ما بين يديه من قوة، ويشاء الله تعالى أن يرى عباده قدرته عليهم بين فترة وأخرى. فهؤلاء المجاهدون الأفغان يقتلون خمسين ألف روسيٍّ في عشر سنوات، والله تعالى يقتل ثأراً لهم مائة ألف روسي في نصف ثانية في زلزال أرمينيا عندما طرد المسلمون من أذربيجان.

ويرسل الله تعالى ميكروب الإيدز على الدول الغربية ومن لفّ لفها فيقتل في عقر دارهم الآلاف كل سنة، بسبب إصرارهم على الفجور، وهكذا هي حرب الله تعالى التي لا تُقارن بحرب البشر.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

الخاتمـــة

إن همم الناس تتافوت في طلب المعالي، والمثابرة على الاعتكاف على العلم قراءة، وكتابة، وبحثاً. ومعظم الناس أصحاب همم ضعيفة، ليس لهم جَلَد على القراءة، أو حضور مجالس العلم، ومتابعة العلماء، فكان هذا اللون من التأليف من أنفع ما يعطى لهذه الفئة من الناس، وحتى أصحاب الهمم العالية، لا يمكن أن تكون نفوسهم مهيئة في كل وقت لقراءة المواضيع المسترسلة، في المجالات المتعددة، فيأتي هذا النوع من التأليف، ليتماشى مع تقلبات النفس، وما تشتهيه في ساعة الرخاء والكسل، لهذا كله، لم يغفل علماؤنا الأفاضل أن يكتبوا في هذا المجال، بل إن مؤلفاتهم في هذا المجال كانت أكثرها شهرة، وقبولاً، وتداولاً بين الناس، أمثال كتاب الفوائد لابن القيم، وصيد الخاطر لابن الجوزي، ومن المعاصرين ككتاب السباعي هكذا علّمتني الحياة، وبعض كتب الطنطاوي وغيرهم.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



تأملات
بعد الفجر